القسم الثانى

الدروس المستفادة

١- الدرس الأول: الصبر .

٢- الدرس الثانى: بر الوالدين .

٣- الدرس الثالث: فضل بر الوالدين .

٤- الدرس الرابع: أدب الدعاء .

٥- الدرس الخامس: البلاء والمرض.

٦- الدرس السادس: كيف نحفظ الله ويحفظنا الله .

٧- الدرس السابع: كتمان العلم .

الحمد الله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين .

وبعد :

ففى هذه الصفحات نقدم للقارئ الكريم الدروس المستفادة من حياة هذه الأسرة المباركة لتكون لنا زادا يقودنا إلى ما فيه الخير والفلاح فى الدنيا والآخرة، ومن المفيد لنا أن نأخذ العبرة والعظة من حياة هؤلاء؛ لأن فى حياتهم خيرا وفيرا وقدوة حسنة لأسرة عاشت لله وعملت لله فكان جزاؤها من الله العزيز الحكيم أن ذكرها فى قرآنه الكريم .

فكذلك يجب علينا أن نبحث فى حياة هؤلاء ونعيش معهم ونسير على طريقهم لما فيه الخير والفلاح .

إن أمة لا تعرف عن ماضيها شيئا ولا تأخذ منه الدروس والعبر كيف تعيش حاضرها ويستشرف لمستقبلها.

فيا أيها الأب ويا أيتها الأم ويا أيتها الابنة والابن، بدل أن نستورد القدوة لنقتدى بها وننحني لها لماذا وعندنا النماذج الطيبة الطاهرة التى زكاها الله وطهرها.

فإليك أخى الحبيب وإليك أختى المسلمة، هذه الدروس المستفادة من أجل أن تأخذيها وتطبقيها، لما فيها الخير لك فى الدنيا، والآخرة هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإذا ذكرنا الماضى فقط تقوقعنا فى ماضينا ولم نخرج منه وأصبحنا أسرى لديه ولم تنطلق لمستقبلنا.

أما آن أن نأخذ من ماضينا لحاضرنا ومن حاضرنا لمستقبلنا فهذا خير لنا .

الصبر

إن المتصفح لحياة السيدة الفاضلة الطاهرة العفيفة مريم ابنة عمران عليها السلام ليجد أنها قد ابتليت فى حياتها بلاءً شديداً، حيث إنها اتهمت اتهاما باطلا ، ورميت بأبشع جريمة ترمى بها سيدة ألا وهى جريمة الفاحشة، وهى منها بريئة وقديسة طاهرة، فماذا فعلت وكيف صنعت أمام هذا الابتلاء هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى . . . ما هى العبرة والعظة التى نستفيد بها ونأخذها من حياة هذه القديسة الطاهرة العذراء البتول؟

من خلال هذه السطور القليلة نذكر الدروس المستفادة من حياتها لكي نسير على طريقها ونترسم خطاها من أجل الفوز فى الدنيا والآخرة .

نحن الآن وبعون من الله عز وجل ومدد منه على موعد مع هذا الدرس الذى نحن جميعا فى حاجة إليه جميعا رجالاً ونساءً وشيوخاً وشباباً من أجل تحمل مشقة الحياة وأعبائها، ولكن السؤال الذى يطرح نفسه ما هي حقيقة الصبر ومراتبه؟

الصبر : لغة : هو الحبس والمنع فهو حبس اللسان عن الشكوى وحبس النفس عن الجزع وحبس الجوارح عن المعاصى . . والعلماء يقولون: إن الصبر أقسام:

القسم الأول: الصبر على المأمور وهو الصبر على الطاعة:

وهذا النوع من أجل أنواع الصبر ، أن يصبر على طاعة الله جل وعلا ، وأولو العزم من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين هم أعظم الناس صبراً على طاعة الله، من أجل ذلك أخبر الله عز وجل نبينا ﷺ أن يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل[1] فقال سبحانه : ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ** ﴾[الأحقاف : ٣٥] فالصبر على الطاعة هو أعلى درجات الصبر .

روى البخارى وغيره من حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**قال الله تعالى فى الحديث القدسى : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها**

(١) حقوق يجب أن تعرف، الشيخ محمد حسان، ص ٥٥، ٥٦ بتصرف.

ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه»(١).

معنى ذلك أن الصبر على الطاعة هو التقرب إلى الله جل وعلا فالدرجة الأولى والعالية من درجات الصبر أن تصبر نفسك على طاعة الله جل وعلا . . فالعبد إذا تقرب إلى الله عز وجل بالفرائض والنوافل فكلما زاد فى نوافله زاد قربًا إلى الله عز وجل، وهكذا حتى يحبه الله عز وجل، فإذا أحبه الله عز وجل صار سمعه وبصره ويده وقدمه .

القسم الثانى : صبر عن المحظور . . أى صبر عن المعصية، وهذا هو صبر المحبين لرب العالمين، فالعبد المحب لله يصبر عن المعصية إجلالاً لسيده ومولاه؛ لأنه لا يحب أن يراه الله على معصية . . فقد قيل لحاتم الأصم: كيف حققت التوكل على الله ؟

قال: بأربعة أشياء: علمت بأن رزقى لا يأخذه غيرى فاطمأن قلبى، وعلمت بأن عملى لا يتقنه غيرى فاشتغلت به، وعلمت بأن الموت ينتظرنى فأعددت الزاد للقاء الله، وعلمت بأن الله مطلع على فاستحييت أن يرانى على معصية فالمعصية شؤم فى الدنيا والآخرة (٢) .

روى الإمام الحاكم فى مستدركه وابن ماجه فى سننه بسند صحيح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « **يا معشر المهاجرين خمس إن ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع والأسقام التى لم تكن فى أسلافهم ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يقطروا ، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم ، فأخذ بعض ما فى أيديهم ولم يحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم**» (٣) .

---

(١) رواه البخارى فى الرقاق (١٥٠٢) وأبو نعيم فى الحلية ج١ص٤ والبيهقى فى الزهد (٦٩٠).

(٢) مرجع سابق .

(٣) رواه ابن ماجه فى الفتن ٤٠١٩ والحاكم ٤/ ٥٤٠، ٥٤١ وصححه ووافقه الذهبى والحديث صحيح .

فانظر أخى الحبيب إلى شؤم المعصية فى الدنيا فمن تجرأ على ارتكاب هذه الجريمة فإن له الخزى فى الدنيا والآخرة .

أما فى الدنيا فإن الذين تجاسروا على ارتكاب هذه الجريمة ولم يصبروا على المعصية فى الدنيا فكيف أصبحت حياتهم؟ أصبح الآن هناك من يصاب بمرض الإيدز وقد كشفت إحصائية عام ٢٠٠٥ عن وفاة ثلاثة ملايين ونصف المليون وإصابة أكثر من خمسة وعشرين مليونًا وأكثر الدول إصابة بهذا المرض أو طاعون العصر كما يوصف تأتى قارة أفريقيا فى المقدمة .

٢- الهند .

٣- روسيا، ولديها أكثر من ألف طفل لأمهات مصابات بمرض الإيدز .

٤- دولة الفاتيكان مع أنها أصغر دولة فى العالم إلا أن بها عدداً غير قليل مصاب بهذا المرض .

دول أوربا وأمريكا اللاتينية والولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من الدول التى أعرضت عن ذكر ربها .

بل من الأمور التى تثير الاشمئزاز أن أكبر منظمة نسائية فى العالم ٦٠٪ من أعضائها سحاقيات.

هذا،والمنظمة السياسية الموجودة فى الأمم المتحدة أكثر من ٧٠٪ من عضوات هذه المنظمة سحاقيات هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى فإن ٨٠٪ من فتيات أمريكا لا يعرفون شيئًا عن البكارة، ٤٠٪ من الطفولة غير شرعية ، ٥٠٪ من الأبناء ليس لديهم أسر، أكثر نسبة اغتصاب فى الغرب ٩٥٪ أكثر نسبة طلاق مدنى ٨٩٪، إلى غير ذلك من شؤم المعصية فى الدنيا(١).

والمعصية سبب الهلاك أيضًا فى الآخرة ، قال جل وعلا : ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ**

(١) مرجع سبقت الإشارة إليه .

وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾[طه : ١٢٤ ـ ١٢٧][1] .

فالصبر عن المعاصى هو صبر المحبين الذين يعرفون جلال الله وقدر الله، فإن زلت أقدامهم فى بؤرة معصية ونجست المعصية ثيابهم سرعان ما جذبوا ثيابهم وطهروها بدموع الأوبة والتوبة والندم .

فلقد ذكر الله المتقين فى قرآنه وذكر من صفاتهم أنهم ربما يقعون فى الفاحشة ، لكن الفارق بين التقى وبين الشقى أن التقى إن زل فى المعصية ذكر الرب العلى فاستغفر الله وتاب إليه، قال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[آل عمران : ١٣٣ـ ١٣٥] .

فالصبر على المعصية من أجل درجات الصبر . .

---

(١) مقال للدكتور عمارة .

منزلة الصبر في القرآن الكريم

بعد أن تناولنا معنى الصبر وأقسامه وذكرنا ما يتعلق به من أمور، فهيا بنا نقف على اليسير من القرآن الكريم لنتعرف على منزلة الصبر عند الله وما أجدر بنا نحن المسلمين لنعيش لحظات الصبر مع القرآن[١] .

فمن بركة العلم أن ننسب العلم لأهله ، فهذا من نفيس كلام ابن القيم لله دره قال : إن الله قد جعل الصبر جواداً لا يكبو وحصنا لا يهدم وجندا لا يهزم ، ولقد بين الله مكانة الصابرين عنده ، تدبر معنى قوله سبحانه: ﴿ **وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٤٦] أخي هل فكرت في هذه الآية دعني أفصل لك كيف يكون حالك لو علمت الآن أن علي بن أبي طالب ﷺ يحبك، ثم كيف يكون حالك لو علمت أن الفاروق عمر يحبك؟ ثم كيف يكون حالك لو علمت أن عثمان بن عفان ﷺ يحبك؟ ثم كيف حالك لو علمت أن الصديق أبا بكر يحبك؟ ثم هل فكرت كيف حالك إذا علمت أن المصطفى ﷺ يحبك؟

هل فكرت فيما أقول كيف يكون حالك إذا علمت أن ملك الملوك يحبك؟

والله يحب الصابرين، أيها الصابر أنت محبوب من الله أنت قريب من الله . .

الله عز وجل يحبك، يا من صبرت على طاعة الله، يا من صبرت عن المعصية وأنت تشتهيها الله يحبك، يا من صبرت على البلاء والمحن تدبر معنى قول ربك جل جلاله: ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة : ١٥٥] .

الله يأمر حبيبه المصطفى ﷺ : أن بشر الصابرين قال تعالى:

﴿ **وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ** ﴾ من الصابرين بنص القرآن؟ ﴿ **الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ﴾ [البقرة : ١٥٦] علموا أنهم ملك لله ، وعلموا أنهم عبيد لله ، وعلموا أن الملك يتصرف في ملكه كيف شاء فصبروا وقالوا : إنا لله، ملك له سبحانه فليفعل الملك فيما يملك كيف شاء إنا لله وإنا إليه راجعون انظر إلى فضل الله

---

(١) مدارج السالكين بتصرف يسير .

عليهم وكرامة الله إليهم ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة : ١٥٧] .

أى ثناء من الله عليهم. وقال سعيد بن جبير: أى أمنة لهم من العذاب أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة .

الله يرحمك أيها الصابر ورب الكعبة سيذيقكك ربك برد الرحمة، يا من صبرت ابتغاء مرضاة الله سيذيقكك الله برد الرحمة ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٧] .

القسم الثالث : الصبر على المقدور أى : على ما قضاه الله وقدره ربك عليك من المصائب والبلايا، وهذا صبر الصديقين، فالصبر على البلاء هو المحك العملى الذى يبين حب العبد لربه ، ويبين حقيقة رضا العبد عن ربه جل وعلا، والإيمان بالقدر خيره وشره ركن من أركان الإيمان لا يصح الإيمان إلا به، كما جاء فى الحديث الذى رواه مسلم وغيره من حديث عمر بن الخطاب ﷺ .

وفيه أن جبريل عليه السلام سأل نبينا ﷺ عن الإيمان، فقال المصطفى ﷺ : «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره**» (١) فالمؤمن يعلم أنه لا يقع شىء فى الكون إلا بقدر: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾[القمر: ٤٩] فإن صبر على البلاء رفع الله عز وجل مكانته ، حتى ولو اشتكى إلى الله سبحانه وتعالى، ولكن عند التحقيق فالشكوى نوعان:

النوع الأول : الشكوى من الله تنافى الصبر .

أما النوع الثانى : الشكوى إلى الله لا تنافى الصبر، فلقد ذكر الله يعقوب عليه السلام وذكر قولته الجميلة حينما فقد ابنه الحبيب يوسف عليه السلام قال يعقوب: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[يوسف:١٨] ومع ذلك فقد شكا يعقوب إلى ربه جل وعلا فقال تعالى حكاية عنه فقال: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [يوسف : ٨٦].

هذا وأثنى على أيوب على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وقال سبحانه وتعالى فى حقه: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٤٤] . ومع ذلك فقد شكا أيوب

---

(١) رواه مسلم فى الإيمان (٨/ ١) .

إلى ربه العزيز الوهاب قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨٣] فالصبر الجميل على البلاء هو الصبر الذى لا شكوى معه بهذا التحقيق الذي أوضحته، وبينت جوانبه هو الصبر الذي لا هلع فيه ولا شكوى فيه من الخالق إلى المخلوقين، فاشكو إلى الله لا حرج عليك فإلى من نشكو إن لم نشك إلى الله أرحم الراحمين . .؟ ولله در من قال:

بك أستجير ومن يجير ســـــواك
فأجر ضعيفا يحتمـــى بحماك
إنى ضعيف أستعين على قوى ذنبى
ومعصيتى ببعـــض قـــواك
أذنبت يا ربى وقادتنى ذنـــــوب
ما لها مـــن غافـــــر إلاك
دنياى غرتنى وعفوك شـــــدنى
ما حيلتى فـــى هـــذه أو ذاك
لو أن قلبى لم يـــك مؤمنـــــا
بكريم عفوك ما غوى وعصاك
رباه ها أنا ذا خلصت من الهـوى
واستقبل القلب الخلى هـــواك
رباه قلب تائب ناجـــــــاك
وترد صادق توبتـــــى
حاشاك ترفض تائبا حاشاك
فليرض عنى الناس أو فليسخطوا
أنا لم أعد أسعى لغير رضـــاك

الجأ إلى الله واشك حالك إلى الله واطرح قلبك بذل وانكسار بين يدى سيدك ومولاك . . قال جل وعلا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ

فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ ﴾[البقرة :١٨٦].

هذه هى حقيقة الصبر فما هى مراتب الصبر بإيجاز شديد؟

قال أهل العلم: الصبر له ثلاث مراتب: صبر بالله، وصبر لله، وصبر مع الله .

فما حقيقة هذه المراتب؟

صبر بالله : وهذا هو المراد بقول الله لسيدنا رسول الله ﷺ: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ [النحل :١٢٧] فأنت لا تستطيع أن تصبر إلا إن استعنت بالله فصبرك طلب العون، والمدد منه سبحانه: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾: يعنى لا يستطيع العبد أن يصبر نفسه إلا إذا وفقه الله عز وجل لذلك .

أما الصبر لله: فهو الصبر الجميل اصبر لله لا تحملاً للناس ولا خوفا منهم، لا خوفا من الناس حتى يقول الناس جزع فلان، ولا تحملاً للناس من أجل أن يقولوا : صبر فلان، بل الصبر الجميل هو الذى تبتغى به وجه الرب الجليل سبحانه وتعالى ، هذا هو الصبر لله . .

أما الصبر مع الله : هو أن أصبر مع أحكام الله وشرعه، وأن تدور مع القرآن والسنة وأن تتمثل الأمر وأن تجتنب النهى، وأن تقف عند الحد وأنت فى غاية الحب لله والرضا عن الله .

فيا أخى الحبيب عليك بالصبر، فإن فيه الخير لك فى الدنيا والآخرة .

يقول الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ: نعم العدلان ونعمت العلاوة، أما العدلان فهما صلوات من الله ورحمة من الله، أما العلاوة وهى التى توضع بين العدلين ـ أي بين كفتى الميزان ـ فهى: أولئك هم المهتدون هداية من الله ورحمة من الله وثناء من الله ، لمن صبر لوجه الله سبحانه وتعالى، لمن صبر على الطاعة ، لمن صبر عن المعصية ، لمن صبر على المحن والمصائب والفتن والابتلاءات وما أكثرها .

فما أكثر المحن التى تتنزل الآن على رؤوس المسلمين فى الداخل والخارج اصبر فعاقبة الصبر خير فى الدنيا والآخرة ، بل لا ينال الإمامة فى الدين إلا إذا زوجت الصبر باليقين وتحليت بهما، قال رب العالمين: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[السجدة: ٢٤].

وقال الله جل وعلا: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾[الأنبياء: ٣٥]، فالابتلاء بالشر هو مناط الصبر والابتلاء بالخير هو مناط الشكر ، فالابتلاء بالشر والخير على السواء، بل قد يكون الابتلاء بالخير أقسى من الابتلاء بالشر؛ لأن الابتلاء بالخير قد ينسي صاحبه ، وقد يلهي صاحبه ، فمن ابتلاه الله بالخير والنعم فشكر وتحدث بنعم الله ظاهرا وباطنا فهو الموفق .

أما الابتلاء بالشر فقد يصبر صاحبه صبر اضطرار وليس صبر اختيار، فصبر الاختيار هو صبر الصديقين الأبرار الذين يحبون الله جل جلاله، ويعلمون أنهم وإن سجدوا لله حتى يلقوه ما استطاع أحدهم أن يوفى ربه حقه تبارك وتعالى، ثم بين الله جل جلاله كرامة الصابرين، فقال سبحانه: ﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦]، والمعية هنا هي المعية الخاصة معية التأييد والنصر والحفظ، الصابر يحبه الله والصابر معه الله .

فيا أيها الحبيب : إن كان الله يحبك فعلى أى شيء تحزن، وإن كان الله معك فمن أى شيء تخاف، إن كان الله معك فعلى أي شيء تحزن . . مصيبة فى المال، مصيبة فى الأولاد، و مصيبة فى الزرع والضرع، ما قيمة هذه المصيبة إن وقفت على عظم الجزاء وفضل الثواب، إن كان الله يحبك تدبر قول الله جل وعلا: ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾[الرعد: ٢٣، ٢٤]، ثم بين الله جل وعلا أن أجر الصبر لا يعلمه إلا الله فيقول سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[الزمر: ١٠] والآيات فى ذلك كثيرة يقول إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل رحمه الله، قال : لقد ذكر الله الصبر فى القرآن فى أكثر من تسعين موضعاً فعند أي المواضع نقف وبأى الآيات نذكر، فإذا كانت الحكمة العربية القديمة تقول: من أخصب تخير . فعند أي آيات الصبر نقف، وعن أى آيات الصبر نتحدث وبأى آيات الصبر نذكر [١].

---

(١) مرجع سبقت الإشارة إليه .

منزلة الصبر فى السنة النبوية

إن الناظر فى السنة النبوية الشريفة ليجد أن ما قاله رسول رب الأرض والسماء ﷺ : وهو يبين لنا مكانة الصبر ليخر لله ساجدا شاكرا ويتمنى أن يكون من الذين أنعم الله عليهم بنعمة الصبر . . فالمعصوم ﷺ يقول كما جاء فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضي الله عنه : **«عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له»** (١) .

فالمؤمن فى السراء والضراء على أجر إن صبر فى الضراء وإن شكر فى السراء تدبر قول حبيب الأرض والسماء كما فى الحديث الذى رواه البخارى. وأحمد وغيرهما من حديث أبى هريرة رضي الله عنه قال ﷺ : **«ما يصيب المسلم من نصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه»** (٢) .

أى فضل وأى عطاء وأى جزاء . . حتى الشوكة يطهرك الله بها حتى الهم والغم حتى الوجع صداع فى رأسك ، هم فى صدرك ، حزن فى قلبك أذى تعرضت له فى بدنك، أو عرضك أو مالك أو امرأتك أو ولدك يكفر الله عز وجل بهذا البلاء كله يكفر خطاياك تدبر وحتى لا يخطئ أحد فى حق سيده ومولاه، فإن الله لا يبغى على أحد ولا يظلم ربك أحدا .

فإذا وقع ما تحبه فاحمد الله على ذلك، وإن وقع بك ما تكرهه فاحمد الله على ذلك واصبر فإن الله عنده حسن الثواب .

والسؤال الذى يطرح نفسه كم ستعيش؟ سنوات قليلة فى حساب الزمن لا تساوى شيئاً على الإطلاق وينتظرك الثواب الأعظم عند الله سبحانه وتعالى، يا من ابتليت بأى صورة من صور البلاء فصبرت وأنت فى غاية الحب لله . والرضا عن الله سبحانه وتعالى، تدبر قول نبيك ﷺ كما فى الحديث الذى رواه البخارى وغيره من حديث سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه قال : قلت : يارسول الله أى الناس أشد بلاء؟

---

(١) رواه مسلم فى الزهد والرقائق ٢٩٩٩ / ٦٤ .

(٢) رواه البخارى فى المرضى ٥٦٤١ ، ٥٦٤٢ ، ومسلم فى البر والصلة والآداب ٢٥٧٣ / ٥٢ والترمذى فى الجنائز ٩٦٩ وأحمد ٣ / ١٨ ، ١٩ ، ٢٤ ، ٤٨ ، ٦١ ، ٨١ .

قال: **«الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه»**(١) .

فالأنبياء هم أحب الخلق إلى الله وأقرب الخلق إلى الله هم أشد الناس بلاء، فالبلاء يطهرك، والمحن والمصائب يرفعك الله بها، إن صبرت على البلاء وعلى قضاء الله وقدر الله سبحانه وتعالى وتدبر ما قاله الصادق الأمين: **«فيما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»**.

وفي الصحيحين من حديث أنس وفيه أنه ﷺ قال : **«ما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر»** .

تعال لنطبق عمليا ما أصلناه لندخل بستان الصابرين لنرى كيف كانوا يعيشون وكيف كانوا يعملون، هؤلاء أولو العزم من الرسل، هم أعظم الناس صبرا لله سبحانه وتعالى، نبي الله نوح الذي صبر صبرا تنوء به الجبال، رجل يصبر على طاعة الله بالبلاغ والدعوة ألف سنة إلا خمسين عاماً ما مل وما كل وما عرف التعب وما ذاق الراحة .

قال: ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا** ﴾[نوح : ٥ ـ ١٣].

أي ما لكم لا توحدون الله حق توحيده ولا تعبدون الله حق عبادته .

ولا تقدرون الله حق قدره ولا تجلون الله حق جلاله ما لكم لا ترجون لله وقارا.

فأي صبر كان مكثه في قومه ألف سنة يدعوهم بالليل والنهار في السر والإعلان وكان لا يطلب منهم شططا، بل كان طلبه أن يوحدوا الله الواحد الأحد ومع ذلك أبوا عليه ووقفوا منه موقف المعاندين المنكرين .

وهذا خليل الرحمن الذي قدم بدنه للنيران وقدم ولده للقربان صبر فريد في

---

(١) رواه ١/ ١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٤، ١٨٥ ، والترمذي في الزهد ٢٣٩٨، وقال: حديث حسن صحيح، ابن ماجه في الفتن ٤٠٢٣ ، والدارمي ٢٧٨٣ وسنده صحيح .

تاريخ البشرية أن يصير أب حنون حرم من الولد سنوات طويلة ورزقه الله الولد على كبر ومع ذلك يؤمر بذبح ولده فيصبر .

بالله عليكم فكروا فى هذا القـول . . أى كلام يستطيع به عالم أديب أن يجـسد به صبر إبراهيم . . وكيف ننسى صبر إسماعيل الذى قال لأبيه:

﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾[الصفات : ١٠٢].

أرأيت قلبا أبويـــــا ... يتقبل أمرا يأبـــــاه
أرأيتم ابنا يتلقـــــى ... أمراً بالذبح ويرضـــاه
ويجيب الابن بلا فـزع ... افعل ما تؤمر أبتـــاه
لن أعصى أمـــر الله ... من يعصى يوما مـولاه
واستل الوالد سكينـا ... واستسلم ابن لرضـــاه
ألقاه برفـق لجبيـن ... كى لا تتلقى عينـــاه
وبهذا الكون ضراعات ... ودعاء يقبـــله الله
تتضرع للرب الأعلى ... أرض وسماء وميـــاه
ويجيب الحق ورحمته ... سبقت فى فضل عطاياه
صدقت الرؤيا لا تحزن ... يا إبراهيم فديـــاه [1]

أى صبر؟ أن يصبر والد على ذبح ولده وأن يصبر ولد على ذبح والده له، صبر عجيب صبر عجيب، والله لو اجتمع علماء الأمـة ببلاغتهم وفصاحتهم ما استطاعوا أن يجسدوا هذا الصبر الفذ فى تاريخ البشرية من أولها إلى آخرها .

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢ ـ ١٠٥] [2].

وإذا ذكرنا الصبـر فلابد وأن نذكر جبلا من جبـال الصبر ألا وهو نبى الله أيوب

---

(١) حقوق يجب أن تعرف، الشيخ محمد حسان ص ٦٩ .

(٢) نفس المصدر السابق .

جبل فذ من جبال الصبر ، كلما قرأنا قصته فى قرآن ربنا كاد العقل يطيش ، فهذا رجل فقد ماله ومات أهله أجمعون لم تبق إلا امرأته وفقد العافية تماما ، ابتلاه الله عز وجل فى ماله ، ابتلاه الله فى أولاده ، ابتلاه الله فى بدنه فأقعده المرض فى الفراش ، مدة من الزمان مع اختلاف الرواية فى هذه المدة ، ولكن أصح الأقوال فى ذلك . . . ما جاء فى حديث أنس رضي الله عنه أن سيدنا رسول الله ﷺ قال : « **إن أيوب نبى الله لبث فى بلائه ثمانى عشرة سنة حتى رفضه القريب والبعيد إلا رجلين كانا من خواص رجاله كانا يغدوان عليه ويروحان حتى قال أحدهما لصاحبه يوما : والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين فقال له صاحبه: وما ذاك؟ فقال له : منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه فيكشف ما به** »[1] .

انظر وفكر يا من تجزع وتهلع وهذا نبى كريم فعندما قال الصاحب لصاحبه: هذا هنا وهنا فقط خشى أيوب الفتنة .

انظروا إلى أنبياء الله فتضرع إلى الله بهذا الدعاء المؤدب الودود المهذب الذى بين أدب نبى الله مع سيده ومولاه قال تعالى: ﴿**وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾[الأنبياء: ٨٣]. لقد أنعم الله عليه بقلب امتلأ بالحب لله والرضا عن الله ، وأنعم الله عليه بلسان لا يفتر لحظة فى هذه السنوات الثماني عشرة عن ذكر الله .

وهذه ورب الكعبة هى الحياة فالذاكر لله حى وإن قتلت منه جميع الأعضاء والغافل عن ذكر الله ميت وإن تحرك من الأحياء قال رسول الله ﷺ: «**مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر ربه كمثل الحى والميت**»، فأيوب عليه السلام حى وإن حبست أعضاؤه فقلبه شاكر ولسانه ذاكر ، اللهم ارزقنا قلبا شاكراً ولسانا وجسداً على البلاء صابرا .

وكان جزاء صبره فى الدنيا أن أمطر الله عليه من السماء جرادا من ذهب ليس مالا عادياً ، بل أمطر الله الكريم سبحانه عليه جراداً من ذهب وجعل نبى الله أيوب يأخذ من الجراد ويضع فى حجره ، يأخذ ويضع فى حجره ، فناداه ربه: وقال يا أيوب

---

(١) رواه أبو يعلى (٥٠٦٣) والحاكم (٢ / ٥٨١) وصححه ووافقه الذهبى وابن حجر فى المطالب العالية (٣٤٦٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٨/ ٢٠٨: رواه أبو يعلى والبزار ورجال البزار ثقات .

أما تشبع؟ فقال أيوب لربه : ومن يشبع يا رب من رحمتك .

إنه الصبر وهذه ثمرته . . إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ثم هل من الأدب أن نتحدث عن الصبر وأن ننسى سيد أهل الصبر . .

من الذى صبر كصبر الحبيب المصطفى ﷺ؟ والله لا أحد قال له ربه: ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر : ٢] فقام ولم يذق طعم الراحة حتى لقى مولاه، صبر صبرا تنوء به الجبال، وضع التراب على رأسه فصبر، وضعت النجاسة على ظهره فصبر، خنق حتى كادت أنفاسه أن تخرج فصبر ، طرد من بلده فصبر، رمى بالحجارة فى الطائف فصبر، كسرت رباعيته فى أحد فصبر ، شج وجهه ونزف دمه فصبر .

وفى الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت للنبى ﷺ: هل مر عليك يا رسول الله يوما كان أشد عليك من يوم أحد؟ فقال المصطفى: «**والله لاقيت من قومك ما لاقيت يا عائشة وكان أشد ما لاقيت منهم حينما كنت فى الطائف حينما عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن كلال فعدت وأنا مهموم على وجهى ولم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب**» .

نحن أعلم بما فعله أهل الطائف بالنبى ﷺ :طردوه وسبوه وضربوه بالحجارة بالله أرجو أن تتدبروا هذا الهم الذى تحمله النبى ﷺ فى قلبه لدرجة أنه مشى ما يزيد على سبعة كيلو مترات لم يشعر بشيء ولم يستفق من كثرة الهموم فى قلبه إلا بسحابة قد أظلته فرفع رأسه فرأى فى السحابة جبريل عليه السلام يسلم عليه ويقول: السلام عليك يا رسول الله لقد سمع الله قول قومك لك وقد أرسل الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم .

يقول المصطفى ﷺ: «**فسلم على ملك الجبال**» وقال: يا رسول الله لقد سمع الله قول قومك لك ولقد أرسلنى فمرنى بما شئت فيهم ثم قال ملك الجبال : لو أمرتنى أن أطبق عليهم الأخشبين لفعلت .

والأخشبان جبلان عظيمان **يقال للأول** : أبو قبيس ، **ويقال للثانى** : الأحمر لو أمرتنى أن أطبق عليهم الأخشبين .

لفعلت[١] ماذا قال سيد الصابرين؟ ماذا قال من لم ينتقم لذاته ولنفسه؟ والله لو انتقم النبى ﷺ لنفسه لأمر ملك الجبال فحطم ملك الجبال هذه الرؤوس الجلدة والجماجم المتعنتة العنيدة، ولسالت أودية من الدماء يراها أهل مكة بمكة وهى تفيض إليهم من الطائف ، ولكن رسول الله ﷺ ما خرج ليثأر لنفسه قط وما انتقم لذاته أبداً .

قال ملك الجبال : لو أمرتنى أن أطبق عليهم الأخشبين لفعلت، فقال الرحمة المهداة: «**لا يا ملك الجبال إنما أرجو الله أن يخرج من أصلابهم من يوحد الله ، بل أرجو الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً**»[٢].

صبر من رسول الله ﷺ، هذا صبر الحبيب، يأتيه خباب بن الأرت وهو متوسد ببردة، والحديث فى البخارى وغيره، ويقول: ألا تدعو لنا ألا تستنصر الله لنا، والرسول ﷺ يجلس كان مضطجعا فجلس بهدوء وبنور النبوة يقول ﷺ: «**والذى نفسى بيده لقد كان من قبلكم يؤتى بالرجل فيوضع المنشار فى مفرق رأسه فيشق نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون العظم واللحم فما يصده ذلك عن دين الله**»، ثم قال : «**والله ليتمن الله هذا الأمر والله ليتمن الله هذا الأمر حتى ليسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم قوم تستعجلون**»[٣] لم يستعجل حبيب الله ، لم يستعجل رسول الله ﷺ : أوذى فصبر صبراً تنوء بحمله الجبال الراسيات فسيد الصابرين هو نبينا محمد ﷺ .

وهذه امرأة سوداء حديثها فى البخارى عن عطاء بن رباح قال: قال لى ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبى ﷺ فقالت: إنى أصرع وإنى أتكشف فادع الله لى، قال: «**إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله لك**» فقالت المرأة: أصبر يا رسول الله، ثم قالت

---

(١) مرجع سبقت الإشارة إليه.

(٢) رواه البخارى فى كتاب بدء الخلق ٣٢٣١، ومسلم فى الجهاد والسير ١٧٩٥/ ١١١ .

(٣) رواه البخارى فى المناقب ٣٦١٢ وفى مناقب الأنصار ٣٨٥٢ .

هذه العفيفة : لكنى أتكشف يعنى إذا صرعت ظهرت سوءتى وعورتى فادع الله لى يعنى لئلا أنكشف فدعا رسول الله ﷺ لها (١).

فكانت تصرع ولا يكشف ثوبها استجابة من الله لدعاء الحبيب ﷺ فصبرت وهى مبشرة على التحقيق بالجنة ممن لا ينطق عن الهوى، وهكذا نهاية الصبر خير فى الدنيا والآخرة .

(١) رواه البخارى فى المرضى ٥٦٥٢، ومسلم فى البر والصلة والآداب ٢٥٧٦ / ٥٤ .

كيف نحقق الصبر

هذا السؤال يطرحه كل مسلم ومسلمة على نفسه بعد أن يقرأ ويسمع ما قيل عن الصبر وجزاء الصابرين . . وإننا نذكر ذلك فى هذه السطور القليلة من خلال نقاط سريعة مركزة؛ لتكون عدة لمن يريد أن يحقق هذا الأمر . .

أولاً : صدق الاستعانة بالله تعالى - لأن العبد إذا لم يعنه الله عز وجل على الصبر ويمكنه منه ، فلا يستطيع .

ثانيا: التفكر فى عظيم الثواب قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [الزمر: ١٠] ، فإذا نظرت إلى عظيم الثواب صبرت على البلاء لأوقات وسنوات . .

ثالثا: النظر فى نعم الله التى لا تعد ولا تحصى ، فإن ابتليت ببلاء فانظر إلى نعم الله السابغة عليك وإلى فضل الله عليك ، لتنسى بهذه النعمة ما أنت فيه من بلاء .

رابعاً: حلاوة الأجر . . فليتفكر الإنسان المبتلى الصابر فى حلاوة الأجر ، فلقد قال رجل من الصالحين شاهد رجلا وقع فانقطعت إصبعه ونزف الدم من إصبعه فضحك فقال له رجل : لماذا تضحك؟

فقال : أتحب أن أخاطبك على قدر عقلك ليس استهزاء ولا احتقاراً وإنما من باب حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتحبون أن يكذب الله ورسوله .

فقال هذا العبد الصالح حينما قطعت إصبعه فضحك، قال : أنستنى حلاوة أجرها مرارة ألمها .

وأخيرا لنعلم كيف كان صبرهم، وهكذا أخى الحبيب نكون قد استفدنا من حياة هذه القديسة الطاهرة العذراء البتول التى صبرت على كيد الكائدين وحقد الحاقدين ، فلقد اتهمت باتهامات باطلة ما أنزل الله بها من سلطان فصبرت وتحملت الكثير والكثير من أجل رضا الله عز وجل فرضى الله عنها . .

ماذا لو لم نصبر؟

من النعم التى ينعم الله عز وجل علـى عبده أن يلهمه الصـبر والإيمان لماذا؟ لأن المسلم إذا لم يصبر ويرضى بقضاء الله وقدره ، عياذا بالله، فإنه يقنط من رحمة ربه، ويضيق صدره ويسـخط وينقم ويحقد على الحيـاة والأحياء، وبذلك يدخل فى دائرة الشك .

ثم يدفعـه ذلك إلى الاعتـراض على قسمـة الله بين خلقه، وبالتالـى ينتقل إلى الكفر برب السماء والأرض عياذا بالله .

وإذا كان مريضا مثلاً أو فقيـراً وضاقت عليه الدنيا بما رحبت ربما دفعه ذلك إلى التخلص من الحياة فينتحر ويموت كافرا، ويكون بذلك خسر الدنيا والآخرة .

فالصبر يأخذ بيد صاحبه إلى بر الأمان فى الدنيا وفى الآخرة .

بر الوالدين

ما أسعد من يفوز ببر والديه فى الدنيا ، ما أرضى لربه وديـنه من يعمل على طاعة والديه .

أتعلم أخى الحبيب أن الجنة فى بيتك وأنت ربما تكون غافلا عن هذه النعمة كيف تغفل عن طاعة ربك بعقوق والديك؟

وبأشقى من حرم من الخير وحسن الجزاء فى الدنيا والآخرة، وسينال عقابه فى حياته قبل مماته .

ونحن بعون من الله وتوفيق منه من خلال هذه السطور القليلة نتناول عقوق الوالدين وكيف يكون؟ حقا إنها مأساة .

شؤم العقوق :

نذكر قصص واقعية من رحم الحياة لتبين لنا أن العدل أن يقتص ممن ارتكب العقوق فى الدنيا والآخرة

كيف نبر آباءنا بعد الموت.

إن بر الوالدين سبب من أسباب دخول الجنة.

وغير ذلك من هذه الأمور نتناولها إن شاء الله عز وجل .

اعلم أخى المسلم هدانا الله وإياك أن بر الوالدين يأتى مباشرة بعد حق الله فى العبادة وبعد حق رسول الله ﷺ فى الطاعة، وسوف أركز الحديث فى هذا الموضوع الكبير الجليل فى العناصر المحددة التالية:

أولاً: حقا إنها مأساة .

ثانياً: شؤم العقوق .

ثالثاً: فضل البر .

العنصر الأول: حقا إنها مأساة:

من المعلوم أن الوالدين يندفعان بالفطرة نحو حب ورعاية الأولاد ، بل وإلى

التضحية فى سبيل سعادة الأولاد بكل شيء ، حتى باللذات فكما تمتص النبتة الخضراء كل غذاء فى الحبة ، فإذا هى فتات ، وكما يمتص الفرخ كل غذاء فى البيضة فإذا هى قشرة هشة، فكذلك يمتص الأولاد كل رحيق وعافية وجهد فى الوالدين ، فإذا هما شيخوخة فانية وهما مع كل ذلك سعيدان ، ولكن من الأولاد من ينسى هذا الحب والعطاء والحنان، ويندفع فى وحشية وجحود وعصيان يسيء إلى الوالدين ، بلا أدنى رحمة أو شفقة أو إحسان .

ويبلغ العقوق الأسود منتهاه وتكتمل فصول المأساة حينما يتبرأ الولد من أمه أو من أبيه أو حينما يقتل الولد أمه أو أباه . .

فهذا ابن يربيه والده الفلاح البسيط الذى ظل يكدح فى الحقل والأرض حتى أثرت الفأس فى يده ، وتشققت قدماه ، وكان يحرم نفسه من كل شيء طيب وجميل ليربى ولده تربية طيبة اقتطع من قوته ، ليطعم ولده اقتطع من راحته وبذل جهده ليعلم ولده فى أرقى الجامعات حتى أوصل ولده إلى هذه الدرجة العالية ، نعم لقد أصبح ابنه أستاذا فى الجامعة، وفى يوم من الأيام أراد أن يرتبط هذا الأستاذ الدكتور بشريكة حياته فارتبط بعيدة ـ زميلة له فى كليته التى يعمل فيها ، وصممت هذه الفتاة الطيبة أن تذهب مع خطيبها إلى بيت أهله لترى والده ولترى أمه ولترى أسرته وهو الذى صور لها فيلما رومانسياً ضخماً ، أنه كذا وكذا، ووالده يملك من الأفدنة والأراضى كذا وكذا وأن عند والده من العمال ما يزيد على كذا وكذا، ورسم لها صورة رومانسية خيالية جميلة ليتبرأ من والده الذى رباه وليتبرأ من أسرته التى نشأ فيها .

ولما أصرت الأخت الطيبة على أن تأتى معه إلى قريته لترى أسرته دخلت بيتا متواضعا والمرأة طيبة النفس والرجل قد وقع فى حيص وبيص .

فلما دخل عليهما والده بعد عودته من الحقل بثيابه المتواضعة.

نظر الأستاذ الدكتور إلى خطيبته أو إلى مخطوبته ، وقال لها: هذا عامل من عمال أبى فطاش عقل الوالد ، أراد أن يتحقق من الكلمات التى استمعها بأذنيه قال: ماذا تقول يا بنى؟ فقال : ألم أقل لك ألا تخاطبنى بهذه اللغة؟

فلا يسعدنى أن أكون ابناً لمثلك فسقط الوالد على الأرض مغشيا عليه من هول الصدمة وعرفت البنت الطيبة الحقيقة فصفعت هذا الأستاذ الدكتور على وجهه صفعة، وتركته وخرجت مسرعة جزاها الله خيرا من امرأة تربت فى أسرة كريمة.

ليس هذا النموذج والمثل السيء فقط بل هناك من هو أسوأ منه كأننا تعودنا فى عصرنا هذا على معرفة السيئ . . وإليك أخى الكريم نموذجا آخر . .

هذا ابن عاق فى قرية من قرى مركز دكرنس محافظة الدقهلية ابن بين عشرة أبناء والده يعمل على عربة متواضعة يجرها حمار هذه وظيفة يبيع الفواكه والخضراوات، عمل شريف ما دام حلالاً، ولكن هذا الولد ألهب ظهر أبيه بالنفقات والمصروفات ، فلقد أوصله والده إلى كلية العلوم فهو طالب فى كلية العلوم فى جامعة المنصورة، وألهب الولد ظهر والده بالنفقات والمصروفات بدلا من أن يتولى رعاية الإخوة مع والده راح يطلب النفقات ويسيء إلى والده : أعطنى أعطنى لينفق المال على البانجو والمخدرات وعلى الزميلات والفتيات ، حتى مل أبوه وصرخ فى وجهه قائلاً: من أين آتى لك بالمال؟

فما كان من هذا الابن الخبيث المجرم العاق إلا أن يستخدم دراسته ، وينطلق ليذهب إلى كليته ليصنع ـ أو ليكون ـ مادة كميائية يقوم بتحضيرها في المعمل، ثم يذهب بكمية كبيرة من هذه المادة الكميائية الحارقة ليسكبها على أبيه وهو نائم ليذوب جلد أبيه حتى تظهر عظامه ويهلك أبوه فى الحال ما هذا الإجرام . . وما هذه القسوة؟! قد يقول قائل: إنه الفقر إنها الحاجة قاتل الله الفقر الذى دفع الولد إلى قتل أبيه ، لا والله ما كان الفقر أبدا سببا للعقوق ولكنها النفس الخبيثة ولكنه غضب الله جل فى علاه .

ثانياً : شؤم العقوق:

إن العقوق شؤم إن عقوق الوالدين شر مستطير ، فالعقوق من أكبر الكبائر عند الله جل وعلا من أكبر الكبائر نعم .

ففى الصحيحين من حديث أبى بكرة أن النبى ﷺ قال: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر**» قالوا: بلى يا رسول الله ، قال: « **الإشراك بالله وعقوق الوالدين**» وكان النبى

ﷺ متكئاً فجلس ثم قال : «**ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور ، ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور**» فما زال يكررها حتى قلنا لعله سكت[١] .

فيأتي العقوق مباشرة بعد كبيرة الشرك، الإشراك بالله وعقوق الوالدين ثم قول الزور.

وفي الحديث الذي رواه الطبراني وابن أبي عاصم في كتاب السنة بسند حسنه الألباني من حديث أبي أمامة أن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة لا يقبل الله منهم صرفا ولا عدلا عاق لوالديه ومنان ومكذب بالقدر**»[٢] .

يعني: لا يقبل الله منهم فرضا ولا نفلا بل خابوا وخسروا وإني لأعجب من رجل يصلي ويصوم ويحافظ على صلاة الجماعة ويكون عاقا لأبويه، فالعقوق شؤم كله ، وخطر كله وسبب للحرمان من رحمة الله عز وجل ، والحرمان من الجنة: «**ثلاث لا يدخلون الجنة العاق لوالديه والمدمن الخمر والمنان**» [٣] .

فما أشقاها من حياة ألا وهي حياة العقوق وما أروحها وأطيبها من حياة ألا وهي حياة البر . . . إنه الحرمان من الجنة والطرد من رحمة الله الذي وسعت رحمته كل شيء، خابوا ورب الكعبة وخسروا من طردوا من رحمة الله عز وجل .

قال المصطفى الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ ـ ففي صحيح مسلم من حديث عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، قال : إن جبريل لما نزل إلى المصطفى ﷺ يوماً وسأله الأسئلة الكثيرة في حديث الإسلام والإحسان والإيمان المشهور قال له: «**متى الساعة؟**» فقال له المعصوم: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، ولكن سأخبرك عن أماراتها**» قال: «**أن تلد الأمة ربتها** » وفي لفظ : «**أن تلد الأمة ربها**» [٤].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشهادات ، باب ما قيل في شهادة الزور (٥ / ٢٦٥٣) ومسلم: في الإيمان باب بيان الكبائر وأكبرها (١ / ٨٧) والترمذي في البيوع باب ما جاء في التغليظ في الكذب والزور (٣ / ١٢٠٧) والنسائي باب ذكر الكبائر (٧ / ٤٠٢١) وأحمد في مسنده (٥ / ٣٦ ، ٣٨ ، ٤١٣) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٨ / ٧٥٤٧) وابن أبي عاصم في السنة (٣٣٣) وحسن إسناده الألباني في الصحيحة تحت رقم ١٧٥٨ .

(٣) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (١٦ / ٤٣٨٠٥)، وعزاه لرسته في الإيمان لكن الالباني ضعفه في ضعيف الجامع تحت رقم ٢٥٩٧ .

(٤) أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب إن الله عنده علم الساعة (٤٧٧٧)، ومسلم في =

وأرجح الأقوال كما قال الحافظ ابن حجر: أن تلد الأمة ربتها ـ أو أن تلد الأمة ربها أى أن يكثر العقوق فيصبح المربى مربيا، يصبح الولد مربياً لأبيه وتصبح البنت الجامعية مربية لأمها البسيطة يصبح المربى مربيا يكثر العقوق بهذه الصورة البشعة التى تخلع القلب .

إن العقوق كبيرة تأتى مباشرة بعد كبيرة الشرك بالله جل وعلا ، وإن البر طاعة تأتى مباشرة بعد توحيد الله جل وعلا قال سبحانه:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾[الإسراء : ٢٣ ، ٢٤] .

وقال تعالى فى موضع آخر: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[الإسراء: ٢٣] .

وهيا بنا نستمع إلى حبر الأمة وترجمان القرآن حيث يقول: ثلاث آيات مقرونة بثلاث:

الأولى : قول الله جل وعلا: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾[المائدة: ٩٢] فمن أطاع الله ولم يطع الرسول لم يقبل منه .

والثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾[النور: ٥٦] . فمن أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة لم يقبل منه .

والثالثة: قوله تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾[لقمان: ١٤] فمن شكر لله ولم يشكر لوالديه لم يقبل منه .

=الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى ج١ ص٨ وأبو داود فى السنة باب فى القدر ٤ / ٤٦٩٥ والترمذى فى الإيمان (٥ / ٢٦١٠) وابن ماجه فى المقدمة باب فى الإيمان (١ / ٦٣) وأحمد فى مسنده (١ / ٣١٩).

ذلك يوم القصاص

العقوق ثمرة مرة لابد أن تذوق طعمها فى الدنيا قبل الآخرة .

ففى الحديث الذى رواه الطبرانى والبخارى فى التاريخ بسند صححه الألبانى من حديث أبى بكرة أنه ﷺ قال: «**اثنان يعجلهما الله البغى وعقوق الوالدين**» (١)، فالبر دين والعقوق دين .

وأسوق إليك أخى القارئ الكريم نماذج من قصاص الله العادل فى الدنيا، فهذا ابن يمسك به الناس ليفتكوا به فى إحدى قرى مركز السنبلاوين وانقض عليه الناس بالضرب والإهانة ، وإلى جواره والده يبكى وهو يقول: اتركوه دعوه اتركوه ثم قال: والله منذ عشرين سنة فى هذا المكان صفعت أبى على وجهه كما صفعنى ولدى الآن، فإنما هو دين أقضيه .

يالله انظر أخى الحبيب إلى عدالة السماء فى نفس المكان الذى ضرب الأب أباه منذ عشرين سنة يأتى الابن ويقتص للجد من أبيه، وهذا هو ابن آخر يجر أباه بقدميه ورجليه ليطرده خارج شقته فيبكى الوالد حينما وصل إلى الباب ويقول الوالد لولده إلى الباب يا بنى إلى الباب فقط ثم بكى وقال : والله ما جررت أبى منذ كذا من السنين وأنا أطرده من بيتى إلا إلى الباب فقط ، فاكفنى بالباب فقط ، فإنما هو دين أقضيه .

وهذا نموذج ثالث ابن من الأبناء يكبر والده وينحنى ظهره ويسيل لعابه فتشمئز الزوجة من والد زوجها وتقول : جنب والدك فإن أبنائى يشمئزون منه فنحى الابن العاق والده عن أحفاده فقال له ابن صغير وهو يحب جده: لم تصنع ذلك بجدى يا أبى ؟

قال: حتى لا تشمئزوا منه ، فبكى الولد الصغير والتفت إلى أبيه وقال: حسنا يا أبى أصنع بك ذلك حينما تكبر كما صنعت بجدى وحدث . .(٢)

---

(١) أخرجه البخارى فى التاريخ (١/ ١٦٦ / ٤٩٤) وأبو نعيم فى أخبار أصبهان (٢ / ٩٩) وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١ / ١٣٧٧، والصحيحة (١١٢٠) .

(٢) حقوق يجب أن تعرف الشيخ محمد حسان ص٥٥٢ والالبانيش عبد الرحمن الضبع ج٢ ص٩٥ .

وهذا ابن آخر كان من علية القوم ، وكانت أمه مصابة بمرض عقلى، فكانت إذا حميت الظهيرة خرجت وصعدت فوق سطح البيت تدور حوله وظلت على ذلك ردحا من الزمان وقد عالجها الابن ولكن العلاج لم يأت بفائدة ، فقد أعيت الأطباء، وذات ليلة والابن مع زوجته فى فراش النوم فقالت له: يا فلان إن أمك بتصرفها هذا تجلب لنا العار والإحراج وخاصة إذا كان عندنا ضيوف وأنت من أنت وقد عالجتها ولم ينفع لها علاج وأديت ما عليك نحوها.

فقال لها: ماذا تريدين ؟ قالت: أرى إذا خرجت تدور فوق سطح البيت كعادتها وقت الظهيرة تتسلل خلفها خفية حتى لا يراك أحد وتلقى بها من فوق السطح ونكون بذلك قد أرحنا واسترحنا واتفقا الشيطانان على ذلك فلما أصبح الصباح وصعدت الأم المريضة المسكينة وهى لا تدرى أن أيدى الغدر التى تدفع بها إلى الهلاك ، هى يد حملتها فى أحشائها تسعة أشهر . . وكم غسلت عنها الأذى، وكم قبلتها وكم خافت عليها الردى، فلما صعد خلفها نظر يساراً فلم ير أحداً ونظر يمينا فلم ير أحداً . وظن أن الله غافل عما يدبره ويعمله وجاء من خلفها وبدون أن تدرى ووضع يده الآثمة فى ظهرها وألقى بها من أعلى فسقطت الأم على الأرض ، مدرجة فى دمائها ونزل مسرعا إلى حيث مكان الجثة وتجمع الناس من كل صوب وفج .

وأقام سرادقا فخماً ضخماً واستقبل العزاء ومضت الأيام صراعا وظن أن الله غافل، كلا، ومرت السنون وإذا به يصاب بهذا المرض وأصبح يصعد فوق السطح ويدور كما كانت تدور حذو النعل بالنعل فتركته زوجته ، فهى أول من تخلى عنه فجمع الله عليه المرض والوحدة ومن نفس المكان بل وفى نفس التوقيت الذى ألقى فيه أمه يقذف بنفسه ويموت كما ماتت أمه» (١) .

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر : ١٣].

ونموذج آخر . . فلقد طالعتنا جريدة الأهرام فى شهور ماضية بحادثة مروعة تخلع القلب، هذه قصة من الإسماعيلية لأسرة ثرية غنية ، لك أن تعرف أخى المسلم

---

(١) الأنابيش ج١٢ ص٩٥ بتصرف .

أن الأم وصلت إلى مكانة اجتماعية مرموقة فى المجتمع ولم لا وهى أستاذة دكتورة فى كلية الهندسة من أسرة ثرية ونشأت مشادة كلامية بين الأم الدكتورة المهندسة ، وبين ولدها الذى تربى فى هذا الثراء والنعيم . وسبب الخلاف أن الأم قد اعترضت على ولدها فى اختياره لشريكة حياته قالت:

لا يا بنى أنا لا أرشح لك هذه الفتاة وإنما أرشح لك فتاة أخرى فما كان من الولد إلا أن يغضب وأن يعلو صوته على أمه، ثم لما اشتد الخلاف والشقاق أسرع هذا الابن العاق إلى مطبخ أمه ، ليحضر سكينا ضخماً لينقض بطعنات قاتلة على أمه حتى فارقت الحياة .

والله إن العين لتدمع وإن الحلق ليجف وإن الكلمات لتتوارى على خجل واستحياء ، بل وبكاء أمام هذه الصور المروعة من صور العقوق التى تخلع القلب .

وهذه أم عجوز أحناها الدهر براحتيه لدرجة أن ظهرها تقوس من أجل أن تربى وحيدها بعد أن توفى والده وتركه طفلا صغيرا . .

وبالفعل تعلم وأصبح أستاذًا جامعيا وتزوج وشهراً بعد شهر اشمأزت الزوجة من أم زوجها فاشتكت منها مراراً وتكراراً فماذا صنع الابن الذى ضيعت زهرة شبابها عليه طردها من الشقة إلى الشارع وهي تتوسل إليه أن يبقيها داخل البيت وتعمل خادمة لزوجته ولكن توسلات هذه الأم التعيسة ذهبت فى أدراج الرياح أمام عناد هذا الابن العاق فطردها إلى الشارع وظلت تتلقى الإحسان من أهل الخير والإحسان، ظلت على هذه الحال ثلاثة شهور إلى أن تم نقلها إلى دار المسنين ظلت فيها أيامها الباقية فلما توفيت ماذا حدث ؟ أرسلوا إلى ابنها من أجل أن يأخذ جثتها ليدفنها فرفض، فدفنت فى مقابر الصدقة على أيدى بعض المحسنين، أهكذا تكون نهاية الأم، والله إن القيامة لقريبة، والله إن هذه الصور من صور العقوق لمن أعظم الدلالة على قرب قيام الساعة .

الدرس الثالث: فضل البر

أخي الحبيب ما أروحها من حياة وأطيبها ألا وهي حياة البر يكفي أن تعلم أن البر من أعظم القربات والطاعات إلى رب الأرض والسماوات ويكفي أن نقف على شرف وفضل البر إذا علمت أن الله جل وعلا قد قرن البر للوالدين بتوحيده جل وعلا : ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾[الإسراء : ٢٣] ﴿ **اعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا به شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾[النساء : ٣٦] وقال تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾[البقرة : ٨٣] .

فقرن الله جلت عظمته البر بالتوحيد كرامة فأنا أؤكد لشبابنا وإخواننا أن البر من أعظم القربات والطاعات بعد التوحيد .

ففي الصحيحين من حديث ابن مسعود ﷺ قال : سألت النبي ﷺ، وقلت : يا رسول الله أي العمل أحب إلى الله تعالى ؟ فقال المصطفى ﷺ : «**الصلاة لوقتها**» قلت : ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**» قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**» (١).

بل ومن أرق ما قرأت : ما رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن رجلاً جاء للنبي ﷺ فقال: يارسول الله جئت أبايعك على الهجرة والجهاد ، فقال له المصطفى ﷺ : «**هل من والديك أحد حي ؟**» قال: نعم، كلاهما يارسول الله فقال المصطفى ﷺ: «**تبتغي الأجر من الله ؟**» قال: نعم يا رسول الله، فقال: «**فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما**» (٢) .

فهذا رجل جاء إلى الرسول ﷺ يريد أن يبايعه على أن يخرج معه من أجل نشر كلمة التوحيد ، والدفاع عن الإسلام ولو أدى ذلك إلى قتله واستشهاده ، في الوقت نفسه كان الرسول ﷺ في حاجة إلى تدعيم جيشه بالرجال ولو كان رجلا واحدا، ولكن ما كان يحقق نصراً على حساب والدين كبيرين ليس لهما عائل سوى هذا الولد فسأله سؤالا محددا: «**هل من والديك أحد حي**» . قال: نعم، فقال له:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة ، باب فضل الصلاة لوقتها ج٢ ص٥٢٧ ومسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى ج١ ص١٣٩ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ، بر الوالدين ،وأنهما أحق به ج٤ ص٤ . .

«**وأنت تريد الأجر والثواب من الله**» ، قال: نعم . يارسول الله فقال: «**فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما**» إذا بر الوالدين يعادل الجهاد فى سبيل الله بل يكون أفضل من الجهاد فى بعض الأحيان وهذا الحديث النبوى الشريف يحمل بشرى إلى كل ابن وكل بنت أحسنا إلى والديهما وبرهما له أجر المجاهد وبر الوالدين أعظم قربة يتقرب بها إلى الله بعد التوحيد وبعد الصلاة لوقتها بر الوالدين .

البر سبب لدخول الجنة والنجاة من النار ..

ففى الصحيحين من حديث أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «**رغم أنفه رغم أنفه**» قالها ثلاثا. قالوا :من يا رسول الله؟ قال: «**من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة**»(١) .

هذا وعيد بأسلوب نبوى بليغ بالدعاء على مجهول بالذلة والندامة والخسران على من أدرك والديه أو أحدهما ولم يكونا سببا فى دخوله الجنة .

فيا من تتضرع إلى الله عز وجل كل يوم ، بأن يبارك الله فى عمرك ، وأن يفرج الله كربك ، وأن يكشف الله غمك ، وأن يزيد الله رزقك ، اعلم أن مفتاح هذا الخير فى يديك ، وأنت تجهله إن أردت أن يفرج الله كربك وأن يكشف الله همك وأن يذهب الله غمك ، وأن يوسع الله رزقك وأن يبارك الله فى عمرك فعليك ببر الوالدين كيف ذلك؟

ففى الصحيحين من حديث ابن عمر أن النبى ﷺ قال: «**انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى أواهم المبيت إلى غار ولما جن عليهم الليل دخلوا غاراً فى بطن جبل ليبيتوا فيه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فقالوا: اعلموا أنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فقال أحدهم : اللهم إنه كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالا فنأى بى طلب الشجر يوما فلم أرح عليهما حتى ناما ، فحلبت غبوقهما ، فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما فوقفت وأنا أحمل القدح على يدى لأنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمى اللهم إنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، ففرج عنا ما نحن**

(١) أخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب ، باب رغم أنف من أدرك أبويه عند الكبر فلم يدخل الجنة ج٤ / ص٢٥٥١ .

فيه فانفرجت الصخرة» [١] .

فهذا الرجل كانت صنعته والتى يعيش منها رعى الأغنام . فهو ينتقل من مكان إلى مكان طلبا للمرعى ، وكانت سنة هذا الرجل أو طريقته أول شيء يفعله عندما يعود إلى بيته يحلب اللبن وقبل أن تلمسه شفتاه أو أطفاله كان يسقى أبويه وذات يوم من الأيام بعد مكان المرعى فتأخر على والديه ، فلما حضر أحضر شرابهما من اللبن على عادته ، ولكن وجدهما نائمين فكره أن يوقظهما، كره أن يزعجهما .

انظر إلى البر حلب اللبن لوالديه ، فلما انطلق إليهما وجدهما نائمين فاستحيى أن يوقظ والديه ، فظل يحمل القدح باللبن ، وظل واقفاً إلى جوار والديه ، ينتظر استيقاظهما حتى برق الفجر . . هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى . . لك أخى المسلم أن تتخيل كيف تحمل هذا الرجل فهو برعى الغنم طيلة يومه . وما فيها من المشقة وكان الواجب أن يخلد للراحة ولكنه آثر رضا والديه وبرهما على راحته ، فمن منا أخى الحبيب وقف على قدميه طيلة ليله أمام والديه من منا سهر طول ليلة ولم تغفل عينه من أجل بر والديه . .

وانظر إلى هذا العامل الآخر الذى يخلع القلب ، (يقول والصبية يتضاغون عند قدمى، أولاده فلذات أكباده يبكون يصيحون عند قدميه من شدة الجوع يريدون الشراب يريدون الطعام وهو لا يريد أن يطعم أولاده أو يسقيهم قبل والديه، انظر يا من تحضر الفاكهة فى ثيابك لامرأتك ست الحسن والجمال حتى لا تراها أمك يا من تبالغ فى إكرام امرأتك على حساب عقوق أمك ، يا من تزعم أنك قريب من الله وأنت عاق لوالديك اعلم علم اليقين أن عملك لا قيمة له ارجع اليوم إلى أبيك وإلى أمك وانحنى على الأقدام فقبلها وعلى الأيدى فضعها على وجهك ورأسك وتشم رائحتها فإن فى رائحتها رائحة الجنة، فماذا كانت النتيجة لهذا البر والنتيجة معروفة أن هذا الرجل دعا ربه بعد ذلك وقال: «**اللهم إن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، ففرج عنا ما نحن فيه**» فاستجاب الله دعاءه إلى جانب أدعية الرجلين

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الإجارة باب من استأجر أجيرا ج٤ ص٢٢٧٢ ومسلم فى كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال ج٤ ص ٢٧٤٣ .

الكريمين الآخرين وخرجوا بفضل الله ثم بفضل صالح أعمالهم ، وكان هذا العمل الصالح الكريم ألا وهو بر الوالدين [١] .

وهذه سورة مشرقة أخرى فى بر الوالدين يجب الاقتداء بها فقد سئل أحد السلف الصالح رضوان الله عليهم عن بره بوالده فماذا قال:

ما ارتقيت سقفاً وهو تحتى ، وما سرت فى طريق إلا وأنا خلفه إن كنت آمن الطريق ، وإلا سرت أمامه ، وما تحدثت أمامه إلا بعد إذنه وخفض صوتى ، وما أكلت طعاماً معه إلا وامتنعت عنه ، لأنى ربما امتدت يدى إلى شىء سبقه عينه إليه.

فهذه السورة المشرقة التى اختفت من بيوتنا فى بعض الأحيان وحل مكانها صور منفرة ، بعيدة عن الإسلام بعيدة عن الأخلاق انظر يا من ترفع صوتك على صوت أبيك يا من تنام فى فراش وثير وتتركه ينام على الحصير يا من تأكل أطيب الطعام وأغلاه ولا تعرف طعم أم لا شرب أم لا ، وربما تحتج بأنك فى عيشة وهو فى عيشة أخرى - هذا عذر غير مقبول بل عذر أقبح من ذنب .

أخى الحبيب من أحق بالحنان والعطف والرحمة والإحسان من أبيك العطوف الرحيم الذى أحسن إليك فى ضعفك ، ومن نفائس أمواله أنفق عليك ورباك، وأرشدك إلى ما ينفعك فى دينك ودنياك [٢].

والقرآن الكريم . . يقص علينا أدبا رفيعا ليكون لنا عظة وعبرة ودرساً نافعاً فيقول الحق تعالى: ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ [مريم : ٤٢ ـ ٤٥] .

إن خليل الرحمن عليه السلام، قدم لأبيه كل السبل والوسائل التى تنقذه من النار ـ إلا أنه من العجيب: فإن الأب مصر على الكفر ومع ذلك لم ييأس منه ، لأنه بار بأبيه ففى كل مرة يبين له أنه حريص كل الحرص على الأخذ بيده إلى طريق

---

(١) حقوق يجب أن تعرف، الحقوق الإسلامية الشيخ محمد حسان ص ٥٤٨ بتصرف.

(٢) تربية الأبناء فى الإسلام د/ ناصح علوان ج١ ص ٢٤٥ بتصرف .

السلام إلى طريق توحيد رب الأرض والسماء ومع ذلك لم يجد من الأب إلا كل جحود ونكران بل هدده بالرجم بالحجارة إن أصر على دعوته إلى الخير فماذا قال الابن البار بأبيه؟

قال: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾[مريم:٤٧]، وبعد هذه الصورة المشرقة الرائعة التى رسمها لنا القرآن الكريم، أصبح من المألوف لدينا فى بعض البيوت ترفع الأصوات على الآباء وكأن الأب أصبح هدفًا للألفاظ النابية والعبارات القبيحة، وإذا جلس مع صديقه يسمعه أعذب الكلمات وأرق العبارات، وإذا ما جلس مع زوجته كان بؤرة حنان متدفقة، وإذا انقلب إلى أبيه وأمه كان عكس ذلك تماماً؛ لأنه ربما أصبح له دخل ثابت من وظيفة أو صنعة أو غير ذلك حدث ذلك فى عهد رسول الله ﷺ .

حينما جاءه رجل وقال: يا رسول الله إن ابنى يمنعنى ماله ، فجاء الابن وقال: يا رسول الله المال مالى. فقال الأب: ألم أكن قوياً وأنت ضعيف؟ ألم أكن غنياً وأنت فقير ألم أكن كذا وكذا؟ فقال النبى ﷺ للابن: «**أنت ومالك ملك لأبيك**» .

وفي رواية أخرى أن ولدا اشتكى إلى رسول الله ﷺ أباه وأنه يأخذ ماله بدون رضاه ، فدعا به فإذا هو شيخ كبير يتوكأ على عصا فسأله الرسول ﷺ فقال: يا رسول الله إنه كان ضعيفا وأنا قوى وفقيراً وأنا غنى فكنت لا أمنعه شيئًا من مالي واليوم أنا ضعيف وهو قوى وأنا فقير وهو غنى وبخل على بماله اسأله يا رسول لم آخذه ألم أصل به رحما فأعطى أخته الفقيرة وعمته المحتاجة ، فلم يبخل عليّ بماله وبكى الرجل وبكى رسول الله ﷺ، وقال: ما من حجر ولا مدر سمع ذلك إلا بكى.

وقال: أخبرنى عن شيء قلته فى نفسك ما سمعته أذناك . قال الشيخ الكبير: يا رسول الله ما زال الله عز وجل يزدنى بك يقينا لقد قلت شيئا فى نفسى ما سمعته أذنايا قلت:

غذوتك مولداً وصنتك يافعاً ... تعل بما أجنى عليك وتنهل

إذا ليلة ضاقتك بالسقم ... لسقمك ساهراً أتململ

كأنى أنا المطروق دونك ... بالذى طرقت به دونى فعينى تهمل

تعاف الردى نفسي عليك وإنها لتعلم أن الموت وقت مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التى إليها مدى ما كنت فيك آمل
جعلت جزائى غلظة وفظاظة كأنك أنت المنعم المتفضل
فياليتك إذا لم ترع حق أبوتى فعلت كما يفعل الجار المجاور يفعل
فواليتنى حق الجوار ولم تكن على بمال دون مالك تبخل

فحينئذ أخذ النبى ﷺ بتلابيب ابنه وقال: «**أنت ومالك ملك لأبيك**» (١).

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص١٢٣ بتصرف .

بر الأم مقدم على بر الأب

اعلم أخى الحبيب أن بر الأم مقدم على بر الأب، ففى الصحيحين من حديث أبى هريرة ﷺ أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى؟ قال: «**أمك**» قال : ثم من؟ قال: «**أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**أبوك**» (١) .

فهذا الحديث يضعنا أمام سؤال مفاده لماذا كرر الرسول ﷺ الأم ثلاث مرات والأب مرة واحدة؟

والإجابة عن هذا السؤال . . أن تكرار الأم ثلاث مرات لأمور منها . . أن الطفل حينما ينشأ ليجد أنه ومنذ نعومة أظافره فإنه لا يرى أحداً ينفق عليه ويلبى طلباته من مأكل ومشرب وملبس وغير ذلك إلا أباه ولا يجد الأم إلا خبازة لطعامه، غسالة لثيابه فأراد الرسول ﷺ أن يؤكد دورها ويبين أهمية هذا الجندى المجهول الذى يعمل ولا يرى أحد عمله .

وقيل: إن الأم مع الابن أو البنت تمر بأدوار ثلاثة:

الدور الأول : الحمل وما فيه من المشقة والتعب من حيث آلام الحمل وتغذية الجنين من دمها ونقص الكالسيوم والحديد وإضعاف جسدها بالكلية، فهذا وغيره ناسب توصية الرسول ﷺ الأولى حينما جاءه الرجل وقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى فقاله له الرسول الكريم ﷺ: «**أمك**» .

الدور الثانى : الوضع وبما فيه من ألم تتمنى الأم الخلاص منه ولو بالموت فناسب الوصية الثانية . من الحديث حينما قال له: ثم من؟ قال: «**أمك**») .

الدور الثالث : التربية والرضاع وما فيه من سهر الليالي وغسل الأذى عن طفلها وتمتد هذه الفترة إلى سنوات ربما تصل إلى أربع أو خمس دون ملل أو يأس مما يكون له أثر سيئ على صحتها ومع ذلك تكون سعيدة مسرورة . فناسب الوصية الثالثة

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب باب من أحق الناس بحسن صحبتى (٣ / ٥٩٧١) ومسلم باب بر الوالدين (٤ / ٢٥٤٨) .

حين قال: ثم من؟ قال: «**أمك**» [١] وقد أشار القرآن إلى ذلك بعبارة موجزة فقال تعالى: ﴿**وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ**﴾ [لقمان: ١٤].

ولما سئل أحد السلف الصالح فقيل له: يا تقى الدين إنا نراك باراً بأمك فلم لا تؤاكلها؟ قال: أخشى أن أمد يدى لطعام تكون قد سبقت عيناها إليه .

فهذه سورة مشرقة لرجل بلغ بره بأمه أنه لا يأكل معها خوفاً من أن تكون أمه قد نظرت إلى اللقمة التى أراد أن يرفعها إلى فيه . فأى بر هذا؟

---

(١) مرجع سبقت الإشارة إليه بتصرف يسير .

بر الأم سبب من أسباب دخول الجنة

نعم أخى الحبيب أرأيت منزلة أعظم من هذه المنزلة إن طاعة أمك تكون سبباً لدخولك الجنة، أخى المسلم الجنة فى بيتك وأنت غافل عنها كيف؟

تعال معى لهذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد وبعض أصحاب السنن بسند حسنه الألبانى من حديث معاوية بن جهامة أن جاهمة جاء للنبى ﷺ يوماً فقال: يا رسول الله أردت أن أغزو فى سبيل الله وجئت أستشيرك فقال له المصطفى ﷺ: «**هل لك من أم؟**» قال: نعم قال له المصطفى: «**الزم رجلها فثم الجنة**»(١).

فهذا رجل أراد أن يعمل للآخرة، ويصل إلى أعلى الدرجات فمن أجل أن يحصل على هذه المنزلة العالية جاء إلى الرسول ﷺ وقال: يا رسول الله أردت الغزو وجئت أستشيرك فسأله سؤالاً ينم عن مغزاه ، فقال له: «**هل لك من أم تعيش معك وهى فى حاجة إليك ؟**»

قال :نعم، قال: «**فالزمها فإن الجنة تحت قدميها**» . . فأى تكريم وأى تعظيم للأم وليعلم كل ابن وكل ابنة أن الجنة التى هى بغية وهدف وحلم كل مؤمن فى هذه الحياة أن الجنة تحت أقدام الأم ولا يكون ذلك إلا ببرها وودها هذا من ناحية . . ومن ناحية أخرى . . هل تريد أخى المسلم أن تأخذ أجر وثواب المجاهد والغازى فى سبيل الله وأنت جالس فى بيتك والإجابة: نعم .

يمكن تحقيق هذا كله ببرك لأمك .

وهذا سليمان بن بريدة يخبرنا أن رجلاً كان فى الطواف حاملاً أمه يطوف بها فسأل النبى ﷺ قائلاً: يا رسول الله هل أديت حقها؟ قال: «**ولابزفرة واحدة**» (٢) .

---

(١) أخرجه النسائى فى كتاب الجهاد باب الرخصة فى التخلف لمن له والدة (٦ / ٣١٤٨) وابن ماجه فى الجهاد ، باب الرجل يغزو وله أبوان (٢ / ٢٧٨١) وأحمد فى مسنده (٣ / ٤٢٩) والحاكم فى المستدرك (٤ / ١٥١) والطبرانى فى الكبير (٢ / ٢٢٠٢) وفى الأوسط ١٢٣٦٤) وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨ / ١٣٨): رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله ثقات وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ج٢ ص ٣٧٣ .

إذا إن بر الأم سبب من أسباب دخول الجنة.

ويروى كذلك عن أنس بن مالك وغيره أن النبى ﷺ : صعد المنبر ثم قال: «آمين آمين آمين» قيل: يا رسول الله على من أمنت قال: «**أتانى جبريل فقال: يا محمد رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليك، قل آمين فقلت آمين ، ثم قال: رغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم خرج ولم يغفر له ، قل آمين قلت آمين ، ثم قال: رغم أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة قل آمين فقلت آمين**» (١) .

(١) أخرجه الترمذى والحاكم عن أبى هريرة .

هل يمكن بر الأبوين بعد الممات وكيف؟

اعلم أنه بعد معرفة هذه الأحكام المتعلقة ببر الأبوين قد يتألم بعض الأبناء ممن حرموا من نعمة الوالدين الآن، ويتحسرون اليوم ويقولون: ليتنا سمعنا هذا وتدبرناه قبل رحيل الوالدين نقول لهم؟ أبشروا فلن أترككم وأنتم تتألمون فإنى أبشركم بأن بر الوالدين لا ينقطع أبدا حتى ولو مات الوالدان فما السبيل إلى بر الوالدين بعد موتهما؟

والجواب كما فى الحديث الذى رواه ابن حبان وابن ماجه وفى سنده من باب الأمانة العلمية التى عاهدنا الله عليها فى سنده على بن عبيد الساعدى لم يوثقه إلا ابن حبان وبقية رجال السند ثقات، أن رجلاً من بنى سلمة جاء إلى النبى ﷺ يوماً فقال : يا رسول الله هل بقى من بر أبوى شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ فقال المصطفى ﷺ: «**نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما**» (١).

فهل تعجز عن ذلك يا من فقدت والدك يا من فقدت أمك الدعاء لأن الصلاة لغة الدعاء والاستغفار بأنك فى صلاتك تستغفر لهم فى ركوعك فى سجودك وإنفاذ العهد إن عهد إليك والدك بشيء فإنفاذك لعهد والدك بر منك بأبيك صل خالتك بعد موت أمك ، صل عمك بعد موت أبيك ، وهكذا صلة الرحم التى لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما . .

والنبى ﷺ يقول : « **إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له**» (٢)، فلا تبخل بالدعاء لوالديك أحياء وأمواتا

---

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب باب بر الوالدين (٤ / ٥١٤٢) وابن ماجه فى كتاب الأدب (٢ / ٣٦٦٤) والحاكم فى المستدرك (٤ . ١٥٥) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى . وقال الألبانى فى ضعيف سنن أبي داود (١١٠١): ضعيف .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الوصية ، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد الوفاة (٣ / ١٤ وصية) وأبو داود فى كتاب الوصايا ، باب ما جاء فى الصدقة على الميت (٣ / ٢٨٨٠) والترمذى فى كتاب الأحكام ، باب فى الوقف (٣ / ١٣٧٦) والنسائى فى الوصايا باب =

وإن من الله عليك بالحج لنفسك فحج لوالديك ، وإن من الله عليك بصدقة جارية فلا تتردد أن تعملها وهذا من البر للوالدين بعد موتهما . . .

آداب الدعاء:

أخى المسلم أختى المسلمة فإن للدعاء آداباً وشروطا وأوقاتاً، حتى يكون مقبولا مستجابا إن شاء الله تعالى . .

قال سهل بن عبد الله التسترى رحمه الله: شروطه سبعة: التضرع والخوف والرجاء والمداومة والخشوع والعموم وأكل الحلال .

ويقول ابن عطاء الله السكندرى : إن للدعاء أركاناً وأجنحة وأسباباً وأوقاتا، فإن وافق أركانه قوى ، وإن وافق أجنحته طار فى السماء وإن وافق أوقاته فاز وإن وافق أسبابه نجح . .

أركانه: حضور القلب والرأفة والاستكانة ، والخشوع . .

أجنحته : الصدق .

مواقيته: الأسحار .

أسبابه: الصلاة على محمد ﷺ [١] .

ولفضيلة الدعاء آداب أجملها الإمام أبو حامد الغزالى فى الإحياء، فذكرها كما يلي:

أولا: ترصد الأوقات الشريفة:

كيوم عرفة ويوم الجمعة لما روى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قيل النبى ﷺ : لأى شىء سمى يوم الجمعة ؟ قال :«**لأن فيها طبعت طينة أبيك آدم ، وفيها الصعقة والبعثة وفيها البطشة وفى آخر ثلاث ساعات منها ساعة من دعا الله فيها استجيب له**»، وفى أيام رمضان ووقت السحر ، وعند ختم القرآن ، وعند البكاء والخشية من الله تعالى . وعند الأذان والإقامة[٢] .

= فضل الصدقة على الميت (٦ / ٣٦٥٣) وأحمد فى مسنده (٢ / ٣٧٢) والبيهقى فى السنن الكبرى (٦ / ٢٢٨) .

(١) تفسير القرطبى المجلد الأول ص٣١١ .

(٢) رواه أحمد برقم ٨٠٨٨ بسند رجاله رجال الصحيح .

فعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « **ثلاثة لا يرد دعاؤهم الإمام العادل والصائم حتى يفطر ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام يوم القيامة ويفتح لها أبواب السماء ويقول الرب عز وجل: بعزتى لأنصرنك ولو بعد حين**» (١).

وعن أنس بن مالك ﷺ أن النبى ﷺ قال :«**الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة**»(٢).

ثانياً: اغتنام الأحوال الشريفة:

من هذه الأحوال عند نزول الغيث أى نزول المطر؛ لأن المطر رحمة من الله عز وجل والدعاء عند نزول الرحمات مقبول بإذن الله، وعند الزحف للجهاد وعند السجود فى الصلاة؛ فعن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء**»(٣)،وعلل بعض العلماء السبب فى كثرة الدعاء فى السجود؛ لأن الشيطان يأتى عن يمين المصلى وعن شماله ومن أمامه ومن خلفه ولا يأتيه عند سجوده.

ثالثا : استقبال القبلة:

لأن فى استقبال القبلة توجها إلى الله عز وجل والتوجه إليه عبادة والدعاء فى حالة التوجه إلى القبلة يكون مظنة القبول إن شاء الله عز وجل.

رابعا: خفض الصوت :

من آداب الدعاء خفض الصوت وجعله بين المخافتة والجهر . . فعن أبى موسى ﷺ أن رسول الله ﷺ : قال « **أيها الناس أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصما ولا غائبا إنه معكم**»(٤) لأن الدعاء طلب والطلب من الناس يكون بصوت

---

(١) رواه أحمد فى مسنده برقم ٧٩٠٤ بإسناد حسن ج٩ ص٢٩٨ ورواه الترمذى رقم ٣٥٩٨ وحسنه، وابن ماجه برقم ٧٥٢ وابن حبان برقم ٨٩٤ .

(٢) رواه الترمذى وحسنه .

(٣) رواه مسلم تحت رقم ٤٨٢ فى الصلاة (باب ما يقال فى الركوع) وأحمد فى مسنده برقم ٩٤١٥ بإسناد صحيح، ورواه أبو داود تحت رقم ٨٧٥ والنسائى رقم ١١٣٧ .

(٤) رواه البخارى تحت رقم ٦٦١٠ فى القدر، باب لا حول ولا قوة إلا بالله، ومسلم رقم ٢٧٠٤ فى الذكر والدعاء وأبو داود برقم ١٥٢٦ وأحمد فى مسنده برقم ١٩٤١٢ .

خفيض فما بالك بالطلب من رب العالمين فيكون بصوت يجلله ويحفه الأدب .

خامساً: عدم تكلف السجع فى الدعاء:

الإسلام دين اليسر والسهولة والبساطة وخاصة إذا وقف العبد بين يدى الله عز وجل فليدعه بما شاء بدون تكلف أو تصنع أو سجع والسجع هو إتيان الكلام على قافية واحدة المهم أن يكون الدعاء بخير ويخرج من القلب ، ويعبر عن إيمان صاحبه.

سادساً : التضرع والخشوع:

من آداب الدعاء أن يدعو العبد ربه بتضرع وذلة وانكسار وخشوع وخضوع ، أخى المسلم نحن فى دنيا الناس إذا وقف أحد على باب أحد يسأله فإنه يسأله بذلة وانكسار، فما بالنا إذا وقفت على باب خالق الخلق ومالك الملك والملكوت؛ لذا يقول الحق تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[الأعراف: ٥٥] .

سابعاً: أن يجزم بالدعاء ويوقن بالإجابة ويؤكد الرجاء فى الله تعالى:

من آداب الدعاء كذلك أن يدعو المسلم وهو على يقين بأن الله يطلع إليه وأنه سيحقق مطلبه ويجيب رجاءه، فلا يقل الداعى: اللهم اغفر لى، إن شئت،اللهم ارحمنى إن شئت بل يعرى سؤاله ودعاءه من لفظ المشيئة ويسأل سؤال من يعلم أنه لا يفعل إلا أن يشاء .

ولأن فى قوله: (إن شئت) نوع من الاستغناء عن مغفرته وعطائه ورحمته فعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : « **إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة ولا يقولن : اللهم إن شئت فأعطنى فإنه لا مستكره له**»(١).

وفى رواية عن أبى هريرة أنه ﷺ قال: « **إذا دعا أحدكم فلا يقول : اللهم إن شئت ولكن ليعظم رغبته فإن الله عز وجل لا يعاظم عليه شىء أعطاه**» (٢).

ثامناً: الإلحاح فى الدعاء والتكرار فيه وعدم التعجل أو استبطاء الإجابة:

من آداب الدعاء عدم التعجل أو استبطاء الإجابة فعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى

---

(١) رواه البخارى فى الدعوات. ورواه مسلم تحت رقم ٢٦٧٩ وأحمد فى مسنده رقم ١١٩١٩ ج١ ص٣٢١ وأبو داود رقم ١٤٨٣ والترمذى ٣٤٩ قال: حسن صحيح.

(٢) رواه أحمد فى مسنده تحت رقم ٩٨٦٢ بإسناد حسن، وابن ماجه رقم ٣٨٥ .

ﷺ قــــال: «**لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدعو بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل**»(١). قيل: يا رسول الله ما الاستعجال؟ قال: «**يقول دعوت فلم أر يستجب لي**». فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء.

وفي مسند الإمام أحمد: «**لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل**» قالوا: يا رسول الله، كيف يستعجل؟ قال: «**يقول دعوت ربي فلم يستجب لي**»(٢).

تاسعاً: أن يقدم بين يدي الدعاء ذكراً وثناء عليه وتسبيحاً له:

من آداب الدعاء أنه يستحب لكل داعي الله عز وجل أن يذكر الله عز وجل ويحمده ويثني عليه بما هو أهل له ثم يصلي على الحبيب ﷺ ثم يدعو بما شاء وبعد انتهائه من دعائه أن يحمد الله ويصلي على رسول الله ﷺ.

عاشراً: الإقبال على الله تعالى والتوبة من الذنوب ورد المظالم إلى أهلها:

ويصور أدب الدعاء قول الله تعالى: ﴿**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[الأعراف: ٥٥، ٥٦].

أخي الحبيب هذه هي آداب الدعاء التي يجب أن يتأدب بها الداعي إلى الله تعالى، فكل واقف بين يدي الله عليه أن يتخلق بهذه الآداب.

وتأمل أخي المسلم: تلك القصة والتي تدل على أن الله لا يخيب من قصده، ولا يرد من دعاه اتفق أن جمعت الرحلة إلى مصر بين هؤلاء العلماء الأربعة محمد ابن جرير الطبري شيخ المفسرين بالمأثور ومحمد بن إسحاق بن خزيمة، ومحمد بن نصر المروزي أحد الأئمة الأعلام ومحمد بن هارون الروياني من حفاظ الحديث الثقات.

قال الخطيب: فأرملوا أي نفذ ما معهم من المال والزاد ولم يبق عندهم ما يقوتهم، وأضربهم الجوع، فاجتمعوا ليلة في منزل كانوا يأوون إليه فاتفق رأيهم على

---

(١) رواه مسلم وأبو داود.

(٢) رواه أحمد في مسنده بسند حسن تحت رقم ١٢٩٤٢ وصححه المنذري في الترغيب والترهيب.

أن يستهموا ويضربوا القرعة فمن خرجت عليه سأل لأصحابه الطعام ، فخرجت القرعة على محمد بن إسحاق بن خزيمة فقال لأصحابه: أمهلونى حتى أتوضأ وأصلى صلاة الخيرة ـ صلاة الاستخارة .

واندفع ابن خزيمة فى الصلاة يدعو الله ويتضرع إليه أن يكشف هذه الكربة وتلك الغمة فإذا هم بالشموع ، ورجل يدق من قبل والى مصر ففتحوا فنزل الرسول عن دابته وقال: أيكم محمد بن نصر فقيل: هو ذا فأخرج صرة فيها خمسون ديناراً فدفعها إليه ثم قال: أيكم محمد بن جرير؟ فقيل: هو ذا فدفع إليه صرة فيها خمسون ديناراً ثم قال: أيكم محمد بن إسحاق [١] ؟فقيل: هو ذا يصلى ، فلما فرغ دفع إليه صرته ، ثم قال:

إن الأمير كان قائلا بالأمس فرأى فى المنام من جاءه يقول : إن المحامد طووا كشحهم جياعا، فلما استيقظ أمر لكم بهذه الصرر ويقسم عليكم إذا نفدت أن تبعثوا إليه يمدكم بغيرها [٢] .

ولله در الإمام الشافعى حين قال :

أتهزأ بالدعاء وتزدريه ... وما تدرى بما صنع الدعاء

سهام الليل لا تخطئ ولكن ... لها أمد وللأمد انقضاء [٣]

أخى المسلم ما نستفيده من هذه الأخبار وغيرها ، أن هذه النجدة العاجلة من الله الكريم ليست خاصة بمحمد بن إسحاق بن خزيمة، ولكنه وعد الله الصادق كل مضطر توجه إليه بصدق وإخلاص وألقى نفسه بين يديه خاشعاً سائلاً متذللاً وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[النمل : ٦٢].

فلو صدق المسلمون الدعاء لأجابهم رب الأرض والسماء لأن وعده هو الحق بلا امتراء غير أن قلوبنا لاهية ونفوسنا جانية وعقولنا للحق غير واعية ، فهل ترى لنا صفة للخير باقية ؟

فهذه السيدة الفاضلة أم مريم عليها السلام كانت مخلصة فى دعائها إلى ربها

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى ج١٤ ص٢٧ .

(٢) تاريخ بغداد ج٢ ص١٦٤ ، ١٦٥ ومعجم الادباء ج١٨ ص٤٦، ٤٧ .

(٣) ديوان الشافعى ص٤٧. ط دار المنار .

ومولاها متأدبة بهذه الآداب السامية فلما وقفت بين يدى الله ودعته أجاب دعاءها ولبى طلبها . . . « اللهم إنى أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم ، وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، وأسأل من الخير ما سألك منه عبدك ورسولك محمد ﷺ وأستعيذك مما استعاذك منه عبدك ورسولك محمد ﷺ . وأسألك ما قضيت لى من أمر أن تجعل عاقبته رشداً برحمتك يا أرحم الراحمين»[١] .

لماذا ندعو ولا يستجاب لنا ؟

أخى المسلم هذا السؤال أتوجه به إلى نفسي وإلى كل مسلم ومسلمة فى مشارق الأرض ومغاربها فى كل زمان ومكان وهذا السؤال سبقنا به أناس وسبقنى فى الإجابة إمام الزاهدين وشيخ العابدين إبراهيم بن أدهم رحمه الله حين مر فى يوم من الأيام بالسوق فاجتمع الناس حوله وقالوا له: يا إبراهيم لم ندعو فلا يستجاب لنا ؟

فقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: لأن القلوب ماتت فى عشرة أشياء. فتعال أخى القارئ لنتعرف على هذه الأشياء العشر من أجل أن نعرفها ونبتعد عنها ونحييها فى قلوبنا من أجل النجاة فى الدنيا والآخرة . .

الأولى : عرفتم الله فلم تطيعوه .

من منا عرف الله فأطاعه حق طاعته، وأدى ما عليه من امتثال أوامره واجتناب نواهيه من منا راقبه عند قوله فلم يقل إلا خيرا وراقبه عند فعله فلم يعمل إلا خيرا ألم يقل الحق تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة : ١٤٨] .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **بادروا بالإعمال سبعا، هل تنتظرون إلا فقرا منسيا ، أو غنى مطغيا ، أو مرضا مفسدا ، أو هرما مفندا ، أو موتا مجهزا ، أو الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة فالساعة أدهى وأمر** »[٢] .

---

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد ٦٣٩ وأحمد فى مسنده برقم ٢٤٩ بإسناد صحيح وابن ماجه برقم ٣٨٤٦ وابن حبان رقم ٢٤١٣ وصححه الحاكم ج١ / ص٢٢١ ووافقه الذهبى.

(٢) رواه الترمذى وقال: حديث حسن .

الثانية: عرفتم الرسول ولم تتبعوا سنته ..

من منا عرف سنة رسول الله ﷺ وعمل بها وسلك سبله ومشى على طريقه واقتفى هديه ونوره ألم يقل الله تعالى: ﴿**مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا**﴾[النساء : ٨٠] فطاعة رسول الله ﷺ فى جميع أقواله وأفعاله وأوامره ونواهيه طاعة لله عز وجل .

الثالثة: عرفتم القرآن ولم تعملوا به:

القرآن الكريم دستور الأمة الخالد ، وكتاب ربها المعجز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وحبله المتين ونوره المبين من تمسك به عصمه ، فمن أراد أن يستجيب الله لدعائه عليه أن يتمسك بكتاب الله ويعمل بما فيه من أوامر ويتجنب عما نهى عنه .

فمن من الله عليه وعلم القرآن وحفظه ، ولم يعمل به فإنه يكون خاسراً فى الدنيا والآخرة ، لأنه إذا دعا لا يستجاب له لماذا؟ لأنه لم يعمل بما حفظ وعلم .

الرابعة : أكلتم نعمة الله ولم تؤدوا شكرها:

فالشكر خلق من أخلاق القرآن وهو فى أعلى المراتب والمنازل الدالة على صدق الإيمان ، والاعتراف بحق الرحمن ، وإظهار نعمه للعيان ، ولذلك جاء فى الأثر الإلهى: أهل ذكرى أهل مجالستى ، وأهل شكرى أهل زيادتى ، وأهل طاعتى أهل كرامتى ، وأهل معصيتى لا أقنتهم من رحمتى أبدا . . لكن بم يكون؟ الشكر يكون باللسان ، وبالقلب وبالجوارح .

وأما باللسان فيكون بإظهار الشكر لله بالثناء على المنعم ويكون بتحميده سبحانه بأن يقول العبد بلسانه: الحمد لله رب العالمين والحمد والشكر عبادة الأولين والآخرين وعبادة الملائكة المقربين وعبادة الأنبياء وعبادة أهل الجنة فأما أنها عبادة الأنبياء فسيدنا آدم عليه السلام لما عطس قال: الحمد لله وسيدنا نوح عليه السلام لما نجاه الله من الغرق قال : ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾[المؤمنون : ٢٨] وسيدنا إبراهيم عليه السلام عندما رزق إسماعيل قال: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ**﴾ [إبراهيم : ٣٩] .

الخامسة : عرفتم الجنة ولم تطلبوها:

من منا لم يسمع عن الجنة وما أعده الله لعباده المؤمنين، ألم نقرأ قول الله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾[محمد : ١٥] .

فهذه صفة من صفات الجنة التى أعدها الله لعباده الصالحين وصدق رسول الله ﷺ حين قال عن الجنة: «**فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فهل طلبناها بفعل كل خير وترك كل شر** ».

السادسة: وعرفتم النار فلم تهربوا منها :

كما أعد الله الجنة للطائعين جزاءً لهم على طاعتهم فكذلك أعد النار عقابا لمن عصاه فعرفنا النار وما فيها من عذاب الله الذى ما بعده عذاب، فهذه النار التي وقودها والتي يشعلها ويعلى لهيبها الناس والحجارة، فعرفنا ذلك فهل بعدنا عنها بترك المعاصى، واجتناب النواهى، وهذا حديث الرسول ﷺ: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**».

السابعة: عرفتم الشيطان فلم تحاربوه ووافقتموه:

كم من آية حذرنا فيها المولى عز وجل من عداوة الشيطان ، وكم من آية ذكر لنا عداوة الشيطان قال تعالى :﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[فاطر:٦] وعلمنا بأن الشيطان لا يأمر إلا بكل شر وأن طريقه بدايته ونهايته الخسران المبين ومع ذلك فإننا نطيعه وطاعتنا له هى معصية الله عز وجل .

الثامنة: دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم:

كم من مفارق لهذه الحياة دفناه وسرنا خلف جنازته وأوصلناه إلى مقره الأخير، فهل بموته اتعظنا وفكرنا فيمن يدفنا؟ المتعقل لهذا الحديث النبوى الشريف القائل فيه: «**لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم بنو آدم ما أكلتم منها سمينا**»(١).

---

(١) قال الألباني في ضعيف الجامع (٤٨١٣) : ضعيف جدًا.

متى ندعو الله عزوجل؟

أخى الحبيب إذا كانت أحوال المتقين القانتين إذا دعوا فإنما يدعون ربهم ويلجأون إليه فى كل أمورهم فى الرخاء وفى الشدة وفى كل الأوقات فلا تكن فى غفلة عن ربك حتى تبتلى ، فإذا ابتليت جأرت إلى الله ، واجتهدت فى الدعاء بل ادع الله وأنت فى عافية ونعمة وستر منه سبحانه .

فاللهم استرنا بسترك الجميل الذى سترت به نفسك فلا عين تراك .

ولقد جاء فى الحديث النبوى الشريف أن النبى ﷺ قال :« **من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب فليكثر الدعاء فى الرخاء** ».

والدعاء فى الرخاء وهو دعاء الشكر ودوام العافية ولا تكن من عبيد السوء الذين لا يعرفون الله إلا فى الشدائد ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى غفلتهم حين يكشف الله الضر عنهم وما هكذا يكون شأن المؤمن المستقيم، ولذا يحدثنا القرآن الكريم . . عن تلك الطائفة من الناس فيقول الحق تعالى : ﴿ **وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ**﴾[لقمان : ٣٢] .

وفى سورة يونس يقول الحق تعالى : ﴿ **وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[يونس : ١٢] .

ركب إبراهيم بن أدهم فى يوم من الأيام سفينة مع عامة الناس فلم يعجبه من أخلاقهم الهرج والمرج والخوض فى اللهو ، فمال إلى مؤخرة المركب وتلفع بثوبه، وجلس القرفصاء وجعل رأسه بين ركبتيه كالحزين المهموم فأخذت السفينة تمخر عباب البحر والسماء صافية والجو صحو ، وركاب السفينة يمرحون ، وما هى إلا ساعات قلائل حتى تغيرت الأحوال وتقلبت الظروف وغابت الشمس وهبت الرياح ولعبت الأمواج بالسفينة ، حتى أحسن القوم بأنهم هالكون وأن الغرق نازل بهم لا محالة ، فجعلوا يتصايحون ، ويستغيثون ، حتى طلبوا من ابن أدهم، أن يدعو الله لكى ينجيهم ، فرفع ابن أدهم أكف الضراعة إلى الله بالدعاء وقال: اللهم إنك قد رأيت عبادك غضبك ونقمتك ، فأرهم عفوك ورحمتك فلم يفرغ من قوله ، ولم يستتم

دعاءه حتى سكن البحر بإذن الله وهدأ الموج وطابت الريح» [١].

لا تسألن بنى آدم حاجـــة وسل الذى أبوابه لا تحجـــــــب

الله يغضب إن تركت سؤله وترى ابن آدم حين يسأل يغضب

وهذا رجل آخر من القـانتين الذين يلجأون إلى الله تعالى فى الرخـاء والشدة، من هذا ؟

إنه صلة بن أشيم رحمه الله رحمة واسعة وكان عابداً من عباد الليل وفارساً من فرسان النهار : هيا بنا لنستمع إلى أحد الجنود الذين خرجوا معه فى إحدى الغزوات وكانت إلى مدينة كابل؟[٢]

يقول الجندى : قلت: والله لأرمـقنه الليلة حتى أرى ما يكون منه فـما أن غرق الجند فى نومـهم ، حتى رأيتـه يستيـقظ من رقدته ، وينحـاز عن العسكر مـستـترا بالعتمة، ويدخل فى غـابة لفاء باسقة فمضيت فى إثره فلما بلغ منهـا مكاناً قصيا ، التمس القبلة وكبر للصلاة واستغرق فيها فنظرت إليه من بعد ، فرأيته مشرق الوجه، هادئ النفس ، كأنما يجـد فى الوحشة أنساً ، وفى البـعد قرباً ، وفى الظلمـة ضياء منيراً، وبينا هو كذلك إذ طـلع علينا أسد من الجانب الشرقى للغابة . فـما أن رأيته حتى كاد قلبى أن ينخلع خوفا منه ، فعلوت شجرة باسقة لواذا من شره .

فما زال الأسـد يدنو من صلة بن أشيم وهو غارق فى صلاته حـتى أصبح على قيد خطوات منه ، فوالله ما التفت إليه ولا حـفل به ، فلما سجد قلت الآن يفترسه فلما نهض من سجوده وجلس ، وقف الأسد بإزائه كأنه يتأمله ، فلما سلم نظر إلى الأسد فى سكون وحرك شفتيه بكلام لم أسمعه فإذا بالأسد ينصرف عنه فى هدوء ، ويعود من حيث جاء ، وإنى لأسمع له أزيزاً تتصدع منه الجبال .

وهذا هو سيدنا زكريا عليه السلام . يدعو ربه فيقول:

﴿رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾[الأنبياء : ٨٩] وفى سورة مريم ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾

(١) من وصايا القرآن الكريم الشيخ / محمد عبد العاطى ص٤٣ .

(٢) كابل عاصمة دولة أفغانستان وهى واقعة على نهر كابل .

وإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾[مريم : ٣ ـ ٦] .

وهذا هو نبى الله أيوب عليه السلام يدعو ربه ليكشف عنه ضره فيقول ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[الأنبياء : ٨٣] .

وهذا هو سيدنا يوسف عليه السلام يدعو ربه بعد أن خلصه من كيد النساء ، وخلصه من السجن وقال: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾[يوسف : ١٠١] .

وهذا هو كليم الله موسى عليه السلام ، يدعو ربه هو الآخر فى غير موضع من كتاب الله تعالى يدعوه حين رأى البحر أمامه والعدو وراءه فيقول : ﴿ وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[الشعراء : ١١٨] وفى موضع آخر يدعو ويقول: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[الأعراف : ١٥١] وبعدها وفى نفس السورة قال : ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾[الأعراف : ١٥٥ ، ١٥٦] .

. . .وهذا هو سيدنا عيسى عليه السلام . . يدعو ربه فى أكثر من موضع فمنها : ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾[المائدة : ١١٤] هكذا كان حال الأنبياء المصطفين الأخيار مع ربهم فكيف يكون حال الأتقياء .

البلاء والمرض

البلاء هو اختبار من الله عز وجل لعبده وتمحيص له فى الدنيا ، لذلك يقول رسول الله ﷺ : « **إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط** » (١) .

يقول العلامة المناوى : من بلاؤه أعظم، فجزاؤه أعظم وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم أي اختبرهم بالمحن والرزايا وهو أعلم بحالها(٢).

لذا يقول لقمان لابنه : يا بنى ، الذهب والفضة يختبران بالنار ، والمؤمن يختبر بالبلاء ، فمن يرضى قضاء ابتلى به ، فله الرضا من الله وجزيل الثواب ومن سخط وكره قضاء الله ولم يرضه فله السخط منه تعالى وأليم العذاب قال تعالى: ﴿**مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**﴾[النساء: ١٢٣].

وقوله ﷺ : «**من رضى فله الرضا**» يحمل بشارة عظيمة لكل مبتلى سواء فى صحته وفى ولده وفى ماله فأقول لمن أصيب بالمرض فى جسده أو عاهة فى أى عضو من أعضائه ورضى بقضاء الله فيه وقدره: أبشر برضا الله عنك وأنه سيعوضك عاجلاً أم آجلا فى الدنيا والآخرة ، وإليك أخى الحبيب هذا النموذج الفذ . .فإذا ذكر الصبر على البلاء والمرض ، فلابد أن تذكر جبلاً من جبال الصبر ألا وهو نبى الله أيوب عليه السلام جبل فذ من جبال الصبر ، كلما قرأت قصته فى قرآن ربنا كاد والله عقلى يطيش .

رجل كريم صابر فقد ماله كله ومات أهله أجمعون لم يبق إلا امراته وفقد العافية تماما ابتلاه الله فى ماله، فى أولاده ، ابتلاه الله فى بدنه فأقعده المرض فى الفراش ، اختلفت الروايات فى المدة التى مكث فيها أيوب فى البلاء فذكر بعض أهل التفسير ، أن امرأة أيوب لما ذهبت إليه لتطلب منه أن يتضرع إلى الله بالدعاء قال لها: لقد عفانى الله سبعين سنة أفلا أصبر لله سبعين سنة .

---

(١) رواه الترمذى وابن ماجه عن أنس وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع تحت رقم ٢١٠٦ تخريج المشكاة تحت رقم ١٥٦٦ والسلسلة الصحيحة تحت رقم ١٤٦ .

(٢) فيض القدير للعلامة المناوى ج٢ ص٤٥٩ .

لكن أصح الأقوال : فى مدة ابتلائه ما جاء فى حديث أنس أن سيدنا رسول الله ﷺ قال : «**إن أيوب نبى الله لبث فى بلائه ثمانى عشرة سنة ، حتى رفضه القريب والبعيد إلا رجلين كانا من خواص رجاله ، كانا يغدوان عليه ويروحان حتى قال أحدهما لصاحبه يوما : والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين فقال له صاحبه : وما ذاك؟ فقال: منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به**»[١].

فيا من تجزع وتهلع لأى شيء يصيبك انظر إلى هذا النبى الكريم حينما سمع مقالة صاحبه هنا وهنا فقد خشى أيوب الفتنة انظروا إلى أنبياء الله، فتضرع إلى الله بهذا الدعاء المؤدب الودود المهذب الذى بين أدب نبى الله مع سيده ومولاه قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ [الأنبياء : ٨٣] .

لم يقل: هدنى ، لم يقل: أهلكنى ، لم يقل: ذبحنى، لم يقل: قتلنى لم يقل: ما هذا الظلم؟ ما هذه الشدة؟ ما هذه القسوة؟

لكن انظروا إلى الأدب إلى أدب من ذاقت قلوبهم حلاوة الأنس بالله، إلى أدب من عرفت قلوبهم جلال الله إلى أدب من وحدت قلوبهم ربهم جل جلاله لقد أنعم الله عليه بقلب امتلأ بالحب لله والرضا عن الله ، وأنعم الله عليه بلسان لم يفتر لحظة فى هذه السنوات عن ذكر الله .

وهذه ورب الكعبة هى الحياة فالذاكر لله حى ، وإن قتلت منه جميع الأعضاء والغافل عن ذكر الله ميت وإن تحرك بين الأحياء قال حبيب رب الأرض والسماء كما فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى: «**مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر ربه كمثل الحى والميت**» .

فأيوب حى وإن حبست أعضاؤه فقلبه شاكر ، ولسانه ذاكر اللهم ارزقنا قلبا شاكرا ولساناً ذاكرا وجسداً على البلاء صابراً ﴿**وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾ والله ما أحلاه من دعاء والله ما أشرفه وما أكرمه من دعاء [٢]

---

(١) رواه أبو يعلى رقم ٣٦٠٥ والحاكم ج٢ ص٥٨١ وصححه ووافقه الذهبى وابن حجر فى المطالب العالية رقم ٣٤٦٠ وقال الهيثمى فى المجمع ج٨ ص٢٠٨: رواه أبو يعلى والبزار ورجال البزار رجال الصحيح والحديث صحيح .

(٢) حقوق يجب أن تعرف، الحقوق الإسلامية، الشيخ محمد حسان ص٧٠، ٧١.

أخي الحبيب انظر إلى الإجابة من العلي القدير جاءت بفاء الترتيب والتعقيب .

قال تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٤]

ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ أن الله رد عليه أولاده بعدد مضاعف .

وأمطر الله عليه من السماء جراداً من ذهب ليس مالاً عادياً بل أمطر الله الكريم سبحانه عليه جراداً من ذهب وجعل نبي الله أيوب يأخذ من الجراد ويضع في حجره يأخذ ويضع في حجره فناداه ربه وقال : يا أيوب أما تشبع فقال أيوب لربه: ومن يشبع يا رب من رحمتك [١] .

إنه الصبر وهذه ثمرته إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب وهذه امرأة سوداء حديثها في الصحيحين عن عطاء بن أبي رباح قال : قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قال: بلى قال : هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع وإني أتكشف فادع الله لي قال: «**إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله لك**» فقالت المرأة :أصبر يا رسول الله ثم قالت هذه العفيفة : لكني أتكشف يعني إذا صرعت ظهرت سوءتي وعورتي فادع الله لي . . . يعني لئلا أتكشف فدعا رسول الله لها [٢] ، فكانت تصرع ولا يكشف ثوبها استجابة من الله لدعاء الحبيب ﷺ وصبرت وهي مبشرة على التحقيق بالجنة ممن لا ينطق عن الهوى.

فالصبر على البلاء عقباه خير في الدنيا والآخرة لذلك يقول الرسول ﷺ: «**ليودن أهل العافية يوم القيامة أن جلودهم قرضت بالمقاريض مما يرون من ثواب أهل البلاء**» من أجل ذلك وغيره صبر نبي الله زكريا قرابة ثمانون عاما على عدم الإنجاب وأثناء هذه المدة الطويلة لم يجزع ولم يقنط من رحمة ربه ، بل كان محتسبا فهل لنا فيه أسوة وقدوة وهل لنا من حياته عبرة [٣] .

---

(١) رواه أحمد ج٢ ص٣٠٤ ، ٤٩٠ ، ٥١١ وسنده صحيح .

(٢) رواه البخاري في المرضى تحت رقم ٥٦٥٢ ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٧٦ / ٥٤ .

(٣) رجال ونساء في القرآن والسنة / الشيخ أحمد محمود الخليس ص٩٨ بتصرف .

كيف تحقق الصبر على البلاء والمرض ؟

والإجابة عن هذا السؤال فى نقاط سريعة:

أولاً: صدق الاستعانة بالله فلن نتمكن من الصبر إلا إذا صبرنا لله عز وجل لأن الأمر كله فى يده .

ثانياً : التفكر فى عظيم الثواب ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[الزمر: ١٠] .

فإذا نظرت إلى عظيم الثواب صبرت على الابتلاء لأوقات وسنوات قليلة .

ثالثاً: النظر فى نعم الله التى لا تعد ولا تحصى ، فإذا ابتليت ببلاء فانظر إلى نعم الله السابغة عليك وإلى فضل الله عليك لتنسى بهذه النعمة ما أنت فيه من البلاء.

فلقد قال رجل من الصالحين شاهد رجلاً وقع فانقطعت إصبعه ونزف الدم من إصبعه فضحك فقال له رجل: لماذا تضحك؟ فقال له: أتحب أن أخاطبك على قدر عقلك ، ليس استهزاء ولا احتقاراً وإنما من باب حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتحبون أن يكذب الله ورسوله، فقال له الرجل الصالح : أتحب أن أجيبك على قدر عقلك؟ فقال له :نعم ، فقال هذا العبد الصالح حينما قطعت إصبعه فضحك قال: أنستنى حلاوة أجرها مرارة ألمها .

وهذا رجل آخر يمر على أخ له قد فقد بصره وقطعت يده ورجله، وفى جسده جراحات متعددة وهو يذكر الله ويقول: الحمد لله الذى أنعم على بهذه النعم فتعجب وقال له: وأى نعمة أنت فيها؟ قال هذا المبتلى: الحمد لله الذى جعل لى لساناً ذاكرا وقلبا شاكرا وبدنا على البلاء صابرا ولم يحوجنى لمثلك . .

أخى الحبيب إذا رأيت أحدًا مبتلى فى صحته فقل: الحمد الله الذى عافانا إذا رأيت أحدا مصابا فى عضو من أعضائه فى بصره فى قدمه فى يده فى أى جزء من جسده تذكر على الفور نعمة الله عليك واعمل على إدامتها فإن النعم تدوم بالشكر والذكر والبعد عن المعاصى .

احفظ الله يحفظك

نحن الآن على موعد مع أمر نحن جميعا فى حاجة إليه لا يمكن لأحد أن يتخلى عنه وله نفع لنا فى الدنيا والآخرة ، هذا الأمر هو حفظ الله .

ولكن السؤال الذى يطرح نفسه كيف نحفظ الله؟ وكيف يحفظنا الله عز وجل؟ فهيا بنا نستمع إلى الحديث الذى يرويه الصحابى الجليل حبر الأمة وترجمان القرآن سيدنا عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال :

كنت خلف رسول الله ﷺ يوما فقال: «**يا غلام إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف**» (١) .

وبلفظ آخر . . عن ابن عباس قال: كنت رديف النبى ﷺ فقال: «**يا غلام أو يا غليم ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟**» فقلت: بلى، فقال: «**احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك تعرف إليه فى الرخاء يعرفك فى الشدة وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله قد جف القلم بما هو كائن**»، فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، واعلم أن فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا(٢).

يقول الإمام أبو فرج الأصفهانى: تدبرت هذا الحديث فأدهشنى ، وكدت أطيش

---

(١) رواه أحمد والترمذى واللفظ له وأبو يعلى فى مسنده ، وابن السنى فى عمل اليوم والليلة والبيهقى فى شعب الإيمان من طريق حنش الصنعانى عن ابن عباس وإسناده حسن .

(٢) إسناده حسن : رواه أحمد والبيهقى فى شعب الإيمان وفى الأسماء والصفات من طريق جنش قال ابن رجب فى نور الاقتباس وأجود أسانيده من رواية حنش عن ابن عباس وهو إسناد حسن لا بأس به نور الاقتباس لابن رجب الحنبلى تحقيق محمد بن ناصر العجمى ص٣٢ ، ٣٣ .

ثم قال : فواأسفا من الجهل بهذا الحديث وقلة الفهم لمعناه .

ويقول الشيخ عائض القرنى : احفظ الله يحفظك لا تزال تكرر هذه الكلمة ما دام فى الارض إسلام وما دام فى الأرض مسلمون.

من يتق الله يحمد فى عواقبه

ويكفيه شر من عزوا ومن هانوا

من استجار بغير الله فى فزع

فإن ناصره عجز وخذلان

فالزم يديك بحبل الله معتصما

فإنه الركن إن خانتك أركان

يقول صاحب نور الاقتباس فى لفظ «**احفظ الله يحفظك**»: إن من حفظ حدود الله وراعى حقوقه حفظه الله ويقول رحمه الله يعنى: احفظ حدود الله وحقوقه وأوامره ونواهيه وحفظ ذلك هو الوقوف عند أوامره بالامتثال، وعند نواهيه بالاجتناب، وعند حدوده فلا يتجاوز ولا يتعدى ما أمر به إلى ما نهى عنه فدخل فى حفظ حدود الله كما ذكره الله فى قوله تعالى: ﴿**وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ**﴾[التوبة: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿**هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ**﴾[ق : ٣٣] .

والحفيظ الحافظ لحدود لله وأوامره والحافظ لذنوبه حتى يرجع عنها وكلاهما يدخل فى الأية وقيل: من حفظ وصية الله لعباده وامتثالها فهو داخل أيضا والكل يرجع إلى معنى واحد فأمره ﷺ لابن عباس رضي الله عنه أن يحفظ الله يدخل فيه هذا كله.

من أعظم ما يجب حفظه من المأمورات الصلوات الخمس ، ولقد سمى الله سبحانه المواظبة على الصلاة وأداءها حفظا ، فقال سبحانه: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ**﴾[المعارج : ٣٤] فمن حفظ الصلاة فى أوقاتها ، وخشوعها وخضوعها وجماعتها حفظه الله يوم يضيع الناس [١] .

---

(١) نور الاقتباس لابن رجب الحنبلى ص٣٩ .

كان الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ وهو مطعون وفى سكرات الموت وعيناه تهراق بالدموع يقول: الله الله فى الصلاة لا حظ فى الإسلام لمن ترك الصلاة، من حفظ الصلاة حفظه الله، ومن ضيع الصلاة ضيعه الله [١] وهكذا أخى الحبيب تكون بذلك ؛ن حفظ الله فحفظه الله عز وجل [٢] [٣] .

حفظ العبد ؛ سانه:

يقول القرنى : من حفظ العبد لربه أن يحفظ لسانه واللسان هذا أمره عجيب فكم هتك من عرض وكم وقع فى معصية ، وكم لطخ من سمعة وكم هدم من بيت،وكم من امرئ اغتاب وكم من نفس قتلت من أجله، فمن حفظ المرء للسانه أنه يوجهه لكل ما يخدم هذا الدين والذب عن حياضه .

ها هو حسان بن ثابت ﷺ كان يحفظ الله تعالى بشعره وبقصائده فحفظه الله كان يمدح الرسول ﷺ ويمدح الدعوة الإسلامية وقد قال فى سب مشركى قريش:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها فلتغلبن مغلب الغلاب

« سخينة كانت نسبة لقريش ، لأن قريشا تحب هذه الأكلة ، فالعرب إذا نسبت قريشا قالت: سخينة » .

وكان رسول الله ﷺ يقربه ويرفعه على المنبر وقال له: «اهجهم» أو قال: «هاجهم وجبريل معك » [٤]

فكان ﷺ يهجوهم ويقول:

هجوت محمدا فأجبت عنه وعند الله فى ذاك الجزاء

أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء

قال الزهرى: أفخر بيت قالته العرب بيت حسان فى بدر:

وبيوم بدر إذ يصد وجوههم جبريل تحت لوائنا ومحمد

---

(١) نور الاقتباس ص٣٥.

(٢) احفظ الله يحفظك، عائض القرنى ص٣٦٣٥ .

(٣) الجزاء من جنس العمل د/ سيد حسين العفانى ج٢ ص٤٦٢ .

(٤) رواه البخارى ومسلم وأحمد .

فهو ﷺ قائد الشعراء إلى الجنة ، لأنه حفظ الله تعالى وهذا عبد الله بن رواحة ﷺ أتى إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله .

فثبت الله ما أتاك من حسن تثبيت موسى ونصرا كالذى نصرا

باع نفسه كما يقول ابن القيم يوم العقبة والبيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن تفرقا فقد وجب البيع .

وهو القائل فى مدح الرسول ﷺ :

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تنل بالخير

ذهب ﷺ إلى غزوة مؤتة، فلما أتت ساعة الصفر نزل وخلع درعه ، وأخذ سيفه وقال:

أقسمت يا نفس لتنزلنه لتنزلن أو لتكرهنه

إن أجلب الناس وشدوا الرنه مالى أراك تكرهين الجنه

هل أنت إلا نطفة فى شنه

ودع الرسول ﷺ وبكى ، ولما التفت إلى المدينة وهو على فرسه قال:

خلف السلام على امرئ ودعته فى النخل خير مودع وخليل

ولما قالوا له: نراك على خير قال : لا . .

لكننى أسأل الرحمن مغفرة وطعنة ذات فرغ تقذف الزبدا

حتى يقال إذا مروا على جدثى يا أرشد الله من غاز وقد رشدا

فكان الصحابة إذا مروا بقبره ، يسلمون عليه ، ثم يقولون: يا أرشد الله من غاز وقد رشدا ، قتل هناك ابن رواحة ، وذهبت روحه إلى الجنة إذا كان هذا نموذج الخير ومثال البر وشعار الطريق المستقيم .

وفى المقابل . . امرؤ القيس . حامل لواء الشعراء إلى النار ضيع شبابه فى المعصية فضيعه الله ما عرف إلا النساء والخمر فضاع والقروى : أحد الشعراء المنحرفين اللبنانيين الفجرة ، نزل دمشق فحملوه على الأكتاف وصفقوا له فقال:

هبوا لى دينا يجعل العرب أمة وسيروا بجثمانى على دين برهم

أيا مرحبا كفراً يوحد بيننـــا وأهلا وسهلاً بعده بجهنـــم [١]

فماذا كانت نهاية هذا الداعر ؟

أخذه الله أخذ عزيز مـقتدر وأهانه، فمات فى الحمـام وما علم به أحد إلا بعد أيام، وقد أصبح جيفة كالكـلب أعاذنا الله من ذلك وهذا الغير . . إيليا أبو ماضى. الشاعر الفاسد يقول :

جئت لا أعلم من أين ولكنى أتيت ولقد أبصرت قدامى طريقا فمشيت

وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت لســـــت أدرى لســـــت أدرى

نقول له : لا دريت ولا تلـيت ، وتوليت وعصيت وأذنبت وأخـطأت وتعاليت وإن لم تكن رجعت إلى ربك فإنك إلى أصحاب الجحيم . .

ولذا من حفظ العبـد لربه أن يحفظه فى سمعـه ، وأن يحفظه فى بصره ، وأن يحفظه فى بطنه وفرجه وسائر جوارحه، وأن يسـخرها لطاعة الله قبل أن تشهد عليه يوم القيامة [٢] .

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[النور : ٢٤] .

---

(١) مرجع سبقت الإشارة إليه.

(٢) احفظ الله يحفظك شريط للشيخ عائض القرنى .

حفظه له فى دنياه

من حفظ اللـه تعالى لعبـده: أن يحفظه فى مـصالح دنياه ، لحـفظه فى بدنه ، وولده ، وأهله وماله ، حفظه من مكر الأعداء ، وحفظه من كيد الطغاة ونصره على الأعداء ، وحفظه للجوارح وتسـخير الدواب والسباع ، وحفظه من شـرها وتسخير الجمادات . . إلى غير ذلك من هذه الأمور والأشياء . .

حفظه له فى دينه ..

وهذا النوع من أشرف أنواع الحفظ وأفضلها . . حفظ الله لعبده فى دينه فيحفظ عليه دينه ، وإيمانه فى حياته من الشبهات المردية والبدع المضلة ، والشهوات المحرمة، ويحفظ عليه دينه عند موته فيتوفاه على الإسلام[١] :

أما حفظه له فى مصالح دنياه:

فعن ابن عمر ﷺ قال: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يمسى وحين يصبح: «**اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة ، اللهم إنى أسألك العفو والعـافـية فى ديـنى ودنياى وأهـلى ومالى ، الـلهم استـر عـوراتى ، وآمن روعـاتى ، واحـفظنى من بين يدى ومن خلفى ، وعـن يمينى وعن شـمالى ومن فـوقى ، وأعـوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى**» [٢]

ومن حفظ الله للعـبد أن يحفظه فى صـحة بدنه . وقوته، وعقله ومـاله قال: بعض السلف: العالم لا يخرف . .

وقال بعـضهم : من جمع القرآن مـتع بعقله وكان أبو الطيب الطبـرى قد جاوز المائة سنة وهو متمتع بعقله وقوته فوثب يوما من سفينة كان فيها للأرض وثبة شديدة . فعوتب على ذلك فقال: هذه جوارح حفظناها من المعاصى فى الصغر فحفظها الله علينا فى الكبر . . وعكس ذلك أن الجنيد رأى شيخـا سأل الناس فقال: إن هذا ضيع الله فى صغره فضيعة الله فى كبره [٣] .

---

(١) مرجع سبقت الإشارة إليه .

(٢) أخرجـه أحمـد وأبو داود والنسائى فى عـمل اليوم والليلة وابن ماجـه وابن حبـان والحاكم وصححه ووافقه الذهبى وهو كما قال .

(٣) البداية والنهاية ج١٢ ص٨٠ .

وقد يحفظ الله العبد بصلاحه فى ولده وولد ولده . كما قيل فى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾[الكهف: ٨٢] أنهما حفظا بصلاح أبيهما .

نبيان يبنيان لغلامين جداراً كان أبوهما صالحاً هل بعد هذا حفظ . . قال محمد ابن المنكدر : إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده وقريته التى هو فيها ، والدويرات التى حولها ، فما يزالون فى حفظ الله وستره.

وقال ابن المسيب لابنه: يا بنى لأزيد فى صلاتى من أجلك رجاء أن أحفظ فيك. وتلا هذه الآية. ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ وقال الإمام العادل خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز: ما من مؤمن يموت إلا حفظه الله فى عقبه وعقب عقبه.

احفظ الله يحفظك :

عن حميد بن هلال عن رجل قال : أتيت النبى ﷺ فإذا هو يرينى بيتا فقال: إن امرأة كانت فيه ، فخرجت فى سرية من المسلمين وتركت ثنتى عشرة عنزا لها ، وصيصتها كانت تنسج بها . . قال: ففقدت عنزا من غنمها وصيصتها ، فقالت: رب إنك قد ضمنت لمن خرج فى سبيلك أن تحفظ عليه ، وإنى قد فقدت عنزاً من غنمى وصيصتى وإنى أنشدك عنزى وصيصتى .

قال :فجعل رسول الله ﷺ يذكر شدة مناشدتها ربها تبارك وتعالى ، قال رسول الله ﷺ : «**فأصبحت عنزها ومثلها وصيصتها ومثلها وهاتيك وهاتيك ، فائتها فاسألها إن شئت**» قال : قلت : بل أصدقك.

ونتذكر حفظ الله ليوسف بن يعقوب ، يعقوب الصابر الذى قال: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[يوسف : ٦٤] .

يقول الحسن البصرى: كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة ، لم يفارق الحزن قلبه ، ودموعه تجرى على خديه ، وما على وجه الأرض عبد أحب إلى الله من يعقوب وحفظ الله لعمر بن عبد العزيز . . أولاده ما خلف لهم مالا فصاروا من أغنى الأغنياء ، وهكذا بان لنا أخى الحبيب أن من يحفظ الله يحفظه الله فى أمواله وأولاده إنه على كل شىء قدير . .[١] .

---

(١) احفظ الله يحفظك / ص٣٠ بتصرف .

احفظ الله يحفظك :

قال عـروة بن الزبير: بلغت أسمـاء بنت أبى بكر الصديق ﷺ مـائـة سنة ولـم يسقط لها سن ولـم ينكر لها عقل . .

وروى أن شيبان الراعى كان يرعى غنما فى البرية فـإذا جاءت الجمعة خط عليها خطاً وذهب إلى الجمعة ثم يرجع وهى كما تركها، وكان بعض السلف فى يده الميزان يزن بها الدراهم ، فسمع الأذان، فنهض ونفضها عن الأرض، وذهب إلى الصلاة ، فلما عاد جمعها فلم يذهب منها شيء.

كتب بعض السلف إلى أخيه: أما بعد . . فـإنه من اتقى الله فقد حفظ نفسه ، ومن ضيع تقواه ضيع نفسه والله الغنى عنه .

احفظ الله يحفظك :

ومن عجيب حـفظ الله تعالى . . لمن حفظه أن يجعل الحـيوانات المؤذية بالطبع حافظة له من الأذى وساعيـة له فى مصالحه كما جرى لسـفينة مولى رسول الله ﷺ أخطأ الجيش بأرض الروم أو أسر فانطلق هاربا يلتمس الجيش، فإذا هو بالأسد فقال: يا أبا الحارث كنية الأسـد أنا مولى رسول الله ﷺ كان من أمرى كيت وكـيت فأقبل الأسد له ببـصبصة أي أقـبل يحرك ذنبه. . حتـى قام إلى جنبه و كلما سـمع صوتا أهوى إليه ، ثم أقبل يمشى إلى جنبه ، حتى بلغ الجيش ثم رجع الأسد هذا .

وذات يوم كان إبراهيم بن أدهم نائمًا فى بستان وعنده حية فى فمها طاقة نرجس فما زالت تذب عنه حتى استيـقظ . . فمن حفظ الله حفظه الله من الحيونات المؤذية بالطبع وجـعل تلك الحيـوانات حافظة له . ورويت هذه القـصة عن مـالك بن دينار قال: نمت فى حديقة فاستيقظت من نومى وأنا فى الحديقة وإذ بحية أخذت زهرة فى فمها وهى تزيل الذباب والباعوض عن وجهى .

احفظ الله يحفظك

هذا شيخ الإسـلام أبو الحسن الزاهد ، بنان الجـمال أنكر يومـا على ابن طالون شيئا من المنكرات وأمره بالمعروف فأمـر به فألقى بين يدى الأسد ، فكان الأسد يشمه ويحجم عنه فأمر برفعه من بين يديه وعظمه الناس جداً وسأله بعض الناس عن حاله

حين كان بين يدى الأسد فقال: لم يكن على بأس قد كنت أفكر فى سؤر السباع واختلاف العلماء فيه هل هو طاهر أم نجس(١) .

تسخير الجمادات:

فهذا العلاء الحضرمى يقف بجيش المسلمين أمام النهر ، ويقول: اللهم إنا جندك، ونقاتل فى سبيلك فاحملنا كيف شئت ثم يدفع فرسه فيخوض الماء هو والجيش، فوالله ما ابتل لهم سرج.

وهذا أبو ريحانة الصحابى الجليل ، وقد ركب البحر فى إحدى المعارك وفقد إبرته ، وكان يخيط بها ثوبه فقال: اللهم رد على إبرتى فرآها على الموج .

وانظر إلى حفظ الله لكليمه موسى عليه السلام بأن سخر البحر لحفظه وهو رضيع أنجاه الله من التلف فأوحى إلى أمه أن تلقيه فى البحر وآلاف الجنود تبحث عنه . ويذبح من الأطفال بسببه ما يذبح ويتمنى فرعون لو يجده فينجيه الله من ذبح فرعون وجنوده بالبحر ثم يربى فى حجر فرعون .

لا يتدبر لك أمراً فأولى التدبير هلكى
سلم الأمر تجدنا نحن أولى بك منكا (٢)

احفظ الله يحفظك

التقى خالد بن الوليد بالروم ، وظن أن عدد الروم يناسب جيشه الذى كان عدده اثنين وثلاثين ألفا ، وجيش الروم كان عدده مائتين وثمانين ألفا، وفى الصباح ومع طلوع الشمس، أقبلت كتائب الروم تتهدر وقبل المعركة قال أحد المسلمين لخالد: ما أكثر الروم وأقل المسلمين اليوم نفر إلى جبل أجا وسلى فدمعت عينا خالد بن الوليد. وقال: بل إلى الله الملتجأ قل : ما أكثر المسلمين وأقل الروم لوددت أن الأشقر برئ من مرضه، وأن الروم أضعف العدد وما أتت ثلاثة أيام إلا وقد أوقع الروم فى كربة وفى سحق ومحق ، لا يعلمه إلا الله وانتصر عليهم، فخالد بن الوليد ﷺ كان يتمنى فرسه وكان يسمى بالأشقر قد برأ من مرضه ولو كانت جنود

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج١١ ص١٦٩ .

(٢) المقامات الجليلة لابن سيد الناس .

الروم أضعاف مضاعفة فإن الله سيعينه عليهم .

احفظ الله يحفظك:

ذكر بهاء الدين بن شداد فى سيرة صلاح الدين الأيوبى فى معرض حديثه عن وقعة الرمل ، فقال : ومن نوادر هذه الموقعة أن مملوكاً كان للسلطان يدعى سرا سنقر وكان شجاعا قد قتل من أعداء الله خلقا عظيماً وفتك فيهم ، فأخذوا فى قلوبهم من نكايته فيهم .فمكروا به ، وتجمعوا له ، وكمنوا له ، وخرج إليه بعضهم تراؤوا له، فحمل عليهم حتى صار بينهم ووثبوا عليه من سائر جوانبه فأمسكوه وأخذ واحد بشعره وضرب الآخر رقبته بسيفه فإنه كان قتل له قريبا فوقعت الضربة فى يد الماسك بشعره فقطعت يده وخلى عن شعره فاشتد هاربا حتى عاد إلى أصحابه وأعداء الله يشتدون عدواً خلفه ، فلم يلحقه منهم أحد ، وعاد سالما ولله الحمد [١].

احفظ الله يحفظك

روى أن رجلاً أخذ رداء الشيخ أبى بكر الكتانى فى حال صلاته ولم يشعر بذلك لشغل قلبه بالله تعالى ، فلما باع السارق وأراد أن يسلم الرداء إلى المشترى يبست يده ، فرجع بالرداء إلى أبى بكر الكتانى ويده شلاء يابسة ، فأخبر الشيخ بذلك، فدعا وقال: إلهى عبدك رد إلى ما أخذ منى ، فاردد عليه ما أخذت منه ، فعادت يده سليمة كما كانت .

ويحكى كذلك أن سارقاً دخل حجرة رابعة العدوية رحمها الله فأخذ شيئا من متاعها فلما قصد الخروج لم يجد سبيلاً فعاد فوضع المتاع فوجد سبيلا هكذا فعلا ثلاثا ، فنودى : إنا نحفظ بيتها والله خير حافظا[٢].

احفظ الله يحفظك عند الموت

من حفظ الله لعبده بل من أجل أنواع الحفظ . . أن يحفظه عند موته اللهم احفظنا عند الموت وبعد الموت ويوم العرض يا رب العالمين .

---

(١) احفظ الله يحفظك الشيخ عائض القرنى ص١٩ .

(٢) صفحات مشرقة من حياة السابقين جمع وتصنيف نذير محمد ص٢١ نقلا من الجزاء من جنس العمل ص ٤٧٣ .

فقد روى عن الحكيم بن أباد عن أبى مكى أنه قال:

إذا حضر الرجل الموت يقال للملك : شم رأسه، قال: أجد فى رأسه القرآن قال: شم قلبه قال: أجد فى قلبه الصيام قال: شم قدميه قال: أجد فى قدميه القيام . قال: حفظ نفسه فحفظه الله عز وجل، وتأكيدا لهذا المعنى فقد ثبت فى الصحيحين من حديث البراء بن عازب أن النبى ﷺ علمه أن يقول عند منامه : «**اللهم إن قبضت نفسي فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين**» قال مسروق : من راقب الله فى خطرات قلبه عصمه الله فى حركات جوارحه .

احفظ الله يحفظك

ومن ضيع الله ضيعه الله بين خلقه ، حتى يدخل عليه الضرر ممن كان يرجو نفعه ، ويصير أخص أهله به وأرفقهم به يؤذيه ، كما قال بعضهم: إنى لأعصى الله فأجد ذلك فى خلق دابتى وامرأتى . .

ومن أنواع حفظ الله لعبده فى دينه أن العبد قد يسعى فى سبب من أسباب الدنيا إما الولايات أو التجارات أو غير ذلك فيحول الله بينه وبين ما أراد لما يعلم له من أسباب الخير فى ذلك ، وهو لا يشعر مع كراهته لذلك .قال ابن مسعود ﷺ: إن العبد ليهم بالأمر من التجارة أو الإمارة حتى ييسر له فينظر الله إليه فيقول للملائكة: اصرفوه عنه فإنى إن يسرته له أدخلته النار فيصرفه الله عنه فيظل يتطير يقول: سبقنى فلان دهانى فلان وما هو إلا فضل الله عز وجل[1].

وعن محمود بن لبيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «**إن الله تعالى ليحمى عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه**»[2] .

وأعجب من هذا أن العبد قد يطلب باباً من أبواب الطاعات ولا يكون فيه خير فيحول الله بينه وبينه صيانة له وهو لا يشعر[3] .

---

(١) نور الاقتباس ص٥٢ .

(٢) صحيح رواه أحمد عن محمود بن لبيد . ورواه الحاكم فى مستدركه وصححه الألبانى فى صحيح الجامع رقم ١٨١٠ .

(٣) مصدر سابق ص٥٠ .

وإذا كان الله عز وجل فى قرآنه الكريم أمرنا بحفظ أوامره واجتناب نواهيه ، وكذلك الرسول ﷺ فى سنته النبوية المطهرة فإليك أخى الكريم هذه الأنواع من الحفظ التى يجب علينا أن نحافظ عليها . لأن فى حفظها نفعا لنا فى الدنيا والآخرة.

حفظ الأيمان

من الأمور التى أمر الله تعالى بحفظها الأيمان، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾[المائدة : ٨٩].

وكان السلف كثيراً ما يحافظون على الأيمان فمنهم من كان لا يحلف بالله ألبتة ومنهم من كان يتورع حتى يكفر عما شك فى الحلف فيه . وهذا إمام أهل السنة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أوصى عند موته أن يخرج عنه كفارة يمين وقال: أظن أنى حنثت فى يمين حلفتها .

وقد روى عن نبى الله أيوب عليه السلام كان إذا مر باثنين يحلفان بالله ذهب فكفر عنهما لئلا يأثما وهما لا يشعران؛ ولهذا لما حلف على ضرب امرأته مائة جلدة أفتاه الله بالرخصة، لحفظه لأيمانه وأيمان غيره . . هكذا كانوا فماذا أصبحنا؟

والإجابة على هذا التساؤل العارض . . أصبح البعض لا يهتم ويحلف بالله فى كل المواطن ولا يبالى صادقا فى يمينه أم كاذبًا . . ندعو الله عز وجل أن يتوب علينا وعلى جميع المسلمين [١] .

---

(١) مرجع سابق ص٣٧ بتصرف .

حفظ القلب

ومن حفظ الله تعالى حفظ العبد لقلبه من الشهوات والشبهات . وحفظه بالذكر والطاعة سلم قلبه لله سبحانه ليهديه سواء السبيل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق: ٢٧] قلب سلم من الشك والشرك سلم من الرياء والنفاق والكبر والعجب والحقد والحسد وامتلأ بالصدق والمراقبة ، والتوكل والخوف والتوحيد والإخلاص مراد الله القلب الفقيه المبصر . .

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[الحج: ٤٦].

إن نبى الله يحيى عليه السلام كان يأنس إلى البرارى فيأكل العشب ويعيش على البقل ويشرب من ماء النهر . . ويقول: من مثلى وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم يحيي بن زكريا عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم السلام ولو كانت الدنيا تساوى عند الله جناح بعوضة ما سقى منها الكافر شربة ماء .

ونحن فى هذه السطور القليلة وهذه الكلمات الوجيزة اليسيرة نتناول حقيقة الدنيا وحقيقة من يسعى إليها وجعلها ملاذه الأخير.

الدنيا ذكرت فى القرآن الكريم ١١٥ مرة، وكذلك ذكرت الآخرة ١١٥ مرة، وهذا من عجائب القرآن الكريم [١].

ولكن الدنيا هزيلة زهيدة فهون من شأنها وارفع نفسك عنها قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[الحديد: ٢٠] .

يقول صاحب الظلال: الحياة الدنيا حين تقاس بمقاييسها هى وتوزن بموازينها تبدو

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القران الكريم .

فى العين وفى الحس أمراً عظيماً هائلاً ولكنها حين تقاس بمقاييس الوجود وتوزن بميزان الآخرة تبدو شيئا زهيداً تافها وهى هنا فى هذا التصوير تبدو لعبة أطفال بالقياس إلى ما فى الآخرة من جد تنتهى إليه مصائر أهلها بعد لعبة الحياة .

لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر . . هذه هى الحقيقة وراء كل ما يبدو فيها من جد حافل واهتمام شاغل، فأما الآخرة فلها شأن غير هذا الشأن يستحق أن يحسب حسابه وينظر إليه ويستعد له وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان فهى لا تنتهى فى لمحة كما تنتهى الحياة الدنيا إنها حساب وجزاء ودوام استحق الاهتمام .

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[آل عمران: ١٨٥].

فما لهذا المتاع حقيقة ذاتية إنما يستمد قوامه من الغرور الخادع ، لما أنه يلهى وينسى ، فينتهى بأهله إلى غرور خادع وهى حقيقة حين يتعمق القلب فى طلب الحقيقة: حقيقة يقصد بها القرآن تصحيح المقاييس الشعورية ، والقيم النفسية، والاستعلاء على غرور [١] .

ولا يخصه بشيء مما جمع من كرائمه ، ويمنعه من قربه فى الآخرة ولقد قيل:

يا غافلاً عن سماع الصوت إن لم تبادر فهو الفوات

من لم تزل نعمته عاجلاً أزاله عن نعمته الموت

فمن أراد أن يعيش لهذه الدنيا وحدها ، فلا مطلع إلى أعلى من الأرض التى يعيش فيها ، فإن الله يعجل له حظه فى الدنيا حين يشاء ، ثم تنتظره فى الآخرة جهنم عن استحقاق فالذين لا يتطلعون إلى أبعد من هذه الأرض يتلطخون بوحلها ودنسها ورجسها ويستمتعون فيها كالأنعام ويستسلمون فيها للشهوات والنزعات ويرتكبون فى سبيل تحصيل اللذة الأرضية ما يؤدى بهم إلى جهنم.

هذا والذى يريد الآخرة إنما يمد بالبصر إلى آفاق أعلى ، فلا يكون المتاع فى الأرض هو الهدف والغاية ولا ضير بعد ذلك من المتاع حين يملك الإنسان نفسه، فلا يكون عبدا لهذا المتاع وإذا كان الذى يريد العاجلة ينتهى إلى جهنم مذموماً مدحوراً ، فالذى يريد الآخرة ويسعى لها سعيها ينتهى إليها مشكوراً يتلقى التكريم فى الملأ

(١) فى ظلال القرآن ج٦ ص٢٠ / ٣٤٩٢ .

الأعلى جزاء السعى الكريم للهدف الكريم، وجـزاء التطلع الى الأفق البعيد الوضىء إن الحـياة للأرض حـيـاة تليق بالديدان والزواحف والحـشـرات والهوام والوحـوش والأنعام .

فأما الحياة للآخرة فهى الحياة اللائقة بالإنسان الكريم على الله الذى خلقه فسواه وأودع روحه ذلك السر الذى ينزع به إلى السماء ، وإن استقرت على الأرض قدماه.

والتفاوت فى الأرض ملحوظ بين الناس بحسب وسائلهم وأسبابهم واتجاهاتهم ، وأعمـالهم ومجـال الأرض ضيق ورقعـة الأرض محدودة ، فكيـف بهم فى المجال الواسع وفى المدى المتطاول كيف بهم فى الآخـرة التى لا تزن فيها الدنيـا كلها جناح بعوضة فمن شاء التفاوت الحق ومن شـاء التفاضل الضخم ، فهو هناك فى الآخرة ، هناك فى الرقعـة الفسيـحة والآماد المتطاولة ، التى لا يـعلم حدودها إلا الله ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون لا فى متاع الدنيا القليل الهزيل [١] .

لذا يقـول الرسـول ﷺ : «**أقصر من جـشائك فإن أكثر الناس شبـعا فى الدنيا أكثرهم جـوعا فى الآخرة**» [٢] وقـال ﷺ: «**أن أكثر الناس شبـعاً فى الدنيا أطولهم جوعا فى الآخرة**» [٣] وقال رسول الله ﷺ لعمر: «**أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة**[٤].

وقال الرسول ﷺ : «**حلوة الدنيا مرة الآخرة ومرة الدنيا حلوة الآخرة**»[٥] يقول العلامة المناوى: يعنى لا يجتمع الرغبة فيها والرغبة فى الله والآخرة بها ، ولا يسكن هاتان الرغبتان فى محل واحد ، وإلا طردت إحداهما الأخرى. واستبدت بالمسكن، فـإن النفس واحـدة ، والقلب واحـد ، فإذا اشـتـغلت بشىء انقطع ضـده هذا من

---

(١) مرجع سابق ج٤ ص٢٢١٩.

(٢) حديث حسن رواه الحاكم فى المستدرك عن أبى جحـفة، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع رقم ١١٩٠، والصحيحة رقم ٣٤٢ .

(٣) حديث حسن رواه أبو نعيم فى الحلية عن سلمـان، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع تحت رقم ١٢١٠ .

(٤) رواه الشيخان وابن ماجه عن عمر .

(٥) رواه أحمـد فى مسـنده والطبرانى فى الكبـير والبـيهـقى فى شعب الإيمان عن أبى مـالك الأشعرى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع رقم ٣١٥٠ والصحيحة برقم ١٨١ .

ناحية[١] .

من ناحية أخرى . . يحتمل أن يكون المراد : حلوة الدنيا ما تشتهيه النفس فى الدنيا ، مرة الآخرة أى يعاقب عليه فى الآخرة ، ومرة الدنيا ما يشق عليه من الطاعات حلوة الآخرة ، أى يثاب عليه فى الآخرة .

وقال رسول الله ﷺ: «**من جعل الهموم هما واحداً هم المعاد كفاه الله سائر همومه ومن تشعبت به الهموم من أحوال الدنيا لم يبال الله فى أى أوديتها هلك**»[٢] . .

قال إدريس الحداد : كان أحمد بن حنبل إذا ضاق به الأمر أجر نفسه من الحاكة، فسوى لهم ، فلما كان أيام المحنة وصرف إلى بيته حمل إليه مال ، فرده ، وهو محتاج إلى رغيف فجعل عمه إسحاق يحسب ما يرد فإذا هو خمسمائة ألف قال: فقال يا عم ، لو طلبناه لم يأتنا وإنما أتانا لما تركناه .

وعن ابن المسيب قال : من استغنى بالله ، افتقر الناس إليه ، وعلى الطرف الآخر . . قال أبو بكر السدوسى : لما ولدت دخل أبى على أمى، فقال: إن المنجمين قد أخذوا مولد هذا الصبى ، وحسبوه ، فإذا هو يعش كذا وكذا وقد حسبتها أياما وقد عزمت أن أعد لكل دينارا فأعد لى حبا وملأه ثم قال: أعدى لى حبا آخر فملأه استظهاراً ثم ملأ ثالثا ودفنهم قال أبو بكر : وما نفعنى ذلك مع حوادث الأيام، وقد احتجت إلى ما ترون. قال أبو بكر السقطى : رأيناه فقيراً يجيئنا بلا إزار، ونسمح عليه يبر بالشىء بعد الشىء[٣] .

فليس السباق إلى إحراز اللهو واللعب والتفاخر ، والتكاثر بسباق يليق بمن سبوا عن الطوق ، وتركوا عالم اللهو واللعب للأطفال والصغار إنما السباق إلى ذلك الأفق، وإلى ذلك الهدف ، وإلى ذلك الملك العريض . . وإلى ذلك أشار القرآن كريم ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[الحديد: ٢١] وقال تعالى : ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[هود : ١٥ ، ١٦] .

---

١ القدير ج٣ ص٣٩٦ .
٢ الجامع ٦٠٦٥ .
٣ لام النبلاء ج١١ ص٣٠٠ .

يقول الشهيد سيد قطب .. من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ، فعمل لها وحدها ، فإنه يلقى نتيجة عمله فى هذه الحياة ويتمتع بها فى أجل محدود ، ولكن ليس له فى الآخرة إلا النار لأنه لم يقدم للآخرة شيئا ولم يحسب لها حساباً ، قبل عمل الدنيا يلقاه فى الدنيا ولكنه باطل فى الآخرة لا يقام له فيها وزن وحابط ، وهى صورة مناسبة للعمل المنتفخ المتورم فى الدنيا ، وهو مؤد إلى الهلاك[١] .

وقال الشيخ محمد رشيد رضا: أولئك الموصوفون بما ذكر ليس لهم فى الآخرة إلا دار العذاب المسماة بالنار ، لأن الجزاء فيها كالجزاء فى الدنيا على الأعمال قال : القشيرى: أولئك الذين خابت أعمالهم ، وظهرت لهم بخلاف ما احتسبوا آلامهم حبطت أعمالهم ، وحاق بهم سوء حالهم [٢] .

وقد صور الحق تعالى فى أروع صورة وأبين بيان حالهم فقال تعالى: ﴿ **من كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا** ﴾ [٣] [الإسراء: ١٨، ١٩].

قال العلامة القرطبى قوله تعالى: ﴿ **من كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ** ﴾ يعنى الدنيا ﴿ **عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ** ﴾ أي لم نعطه منها إلا ما نشاء ، ثم نؤاخذه بعمله وعاقبته دخول النار ﴿ **مَذْمُومًا مَّدْحُورًا** ﴾ أى مطردا مبعدا من رحمة الله . . .

معنى ذلك وكما يقول صاحب لطائف الإشارات: من رضى بالحظ الخسيس من عاجل الدنيا بقى عن نفيس الآخرة ، ثم لا يحظى إلا بقدر ما اشتمه ثم يكون أنس ما به قليا ، وأشد ما يكون به سكونا، ثم يختطف عن نعمته .

قال رسول الله ﷺ: « **من كانت همه الآخرة جمع الله له شمله وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا راغمة ، ومن كانت همه الدنيا ، فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأتيه من الدنيا إلا ما كتب الله له** » [٤] .

---

(١) الظلال ج٤ ص١٨٦٢ .

(٢) تفسير المنار ١٢ / ١٨ .

(٣) تفسير القرطبى ج٦ ص٣٨٥١ .

(٤) حديث صحيح : رواه ابن ماجه عن زيد وصححه الالبانى فى صحيح الجامع رة

نعم ما أجمل وما أروع هذا الحديث الذى وضع لنا الأمور فى نصابها فمن شغلته الدنيا ولم يعمل إلا لها ، ولم يسع إلا من أجلها فعاش ليله ونهاره لا شاغل له إلا الدنيا فقط . . كان جزاؤه أن ابتلاه بحب الدنيا والسعى لها ، وأصبح فى حالة فقر وفى شح؛ وينظر إلى ما فى أيدى الآخرين ولو كان أغنى الأغنياء ، وإذا ما صادفته فى طريق حسبته فقيرا وتصدقت عليه . هذا من ناحية .

ومن ناحية ثانية فإن هذا الحديث يصور لنا الحالة النفسية لهذا الذى تربعت الدنيا على قلبه وملكت عليه سوداء نفسه ، فهو معذب النفس فى هم وغم على طول أيامه، لا يعرف لوقته راحة ولا تمر عليه ساعة يحس فيها بسعادة ، كلما جاءه المال أراد المزيد ، وإذا خرج المال من بين يديه كأن روحه خرجت ، ومع كل هذا لا يأخذ من الدنيا إلا ما قد كتبه الله له.

أما من شغلته الآخرة وسعى لها وكانت أكبر همه إذا نام فكر فيها وإذا استيقظ من نومه فكر في وقوفه بين يدي خالقه، وإذا أكل أو شرب أو باع أو اشترى الله فى خاطره ووقوفه أمام ربه لا يفارقه فهذا هو الغنى لأنه فى راحة نفسية عجيبة ، ومن عزته أمام الناظرين تحسبه غنيا وإن كان فقيراً لأنه غنى النفس غنى القلب .

وقال رسول الله ﷺ : « **إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفا** »(١).

وقال رسول الله ﷺ : « **إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة على وعمار وسلمان** » (٢).

وعن سفيان: من بر بالدنيا نزع خوف الآخرة من قلبه .

وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ : «**فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة سنة**» (٣) .

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما فقال: لما كان يوم أحد أشرف النبى ﷺ على

= والصحيحة رقم ٩٤٨ .

(١) رواه مسلم عن ابن عمرو .

(٢) حديث: حسن رواه الترمذى والحاكم عن أنس، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع رقم ١٥٩٤.

(٣) رواه الترمذى وحسنه ابن القيم فى عدة الصابرين .

الشهداء الذين قتلوا يومئذ ، فقال: «**إني لشهيد على هؤلاء فزملوهم بدمائهم**».

فيا لها من بشرى غالية عظيمة شهد بها المعصوم ﷺ على هؤلاء الذين لقوا حتفهم فى سبيل الله فإن سيد الأولين والآخرين شهد لهم بأنهم ما خرجوا وما ضحوا بأرواحهم إلا من أجل رضاء الله ورسوله ففازوا بالجنة، وفى الصحيحين عن خباب ابن الأرت رضي الله عنه، قال: هاجرنا مع رسول الله ﷺ نلتمس وجه الله ، فوقع أجرنا على الله ، فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئا منهم مصعب بن عمير رضي الله عنه، قتل يوم أحد وترك بردة .فكنا إذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه ، وإذا غطينا رجلاه بدت رأسه ، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نغطى رأسه ونجعل على رجليه شيئا من الإذخر ومنا من أينعت له ثمرته.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ما أوتى عبد من الدنيا شيئاً إلا نقص من درجته عند الله ، وإن كان كريماً .

فاحذر الدنيا يا أخى فإنها كما قال يحيى بن معاذ : خمر الشيطان مَنْ سكر منها فلا يفيق إلا فى سكر الموتى نادما بين الخاسرين [١].

وعن عيسى ابن مريم عليه السلام قال: لا تتخذوا الدنيا ربا فتتخذكم الدنيا عبيدا واكنزوا كنزكم عند من لا يضيعه ، فإن صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة وإن صاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة [٢].

وعنه أنه قال: ما سكنت الدنيا فى قلب عبد إلا ولط أى التصق بقلبه ـ قلبه بثلاث شغل لا ينفك عناؤه وفقر لا يدرك غناه ، وأمل لا يدرك منتهاه ، الدنيا طالبة ومطلوبة ، فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه ، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجىء الموت فيأخذه بعنقه [٣] .

---

(١) الجزاء من جنس العمل د/ سيد حسين العفانى ج٢ ص٢٠٤.

(٢) ذم الدنيا لابن أبى الدنيا، تحقيق مجدى السيد إبراهيم ص٢١

(٣) إحياء علوم الدين للإمام أبى حامد الغزالى ج٣ ص١٩٨ .

الدرس السابع
عدم كتمان العلم

من الدروس المستفادة من حياة نبى الله يحيى عليه السلام عدم كتمان العلم لماذا؟

لأن كتمان العلم جريمة ، وأى جريمة حينما يمنع العبد نعمة منَّ الله بها عليه ، والناس فى حاجة إليه ، وهو مأمور بإظهارها والعمل على شيوعها والعمل بما علم والسعى لمن جهل فيعلمه لأن الجهل موت والعلم حياة فمن يعلم علما ويعلمه الناس كأنما أحياهم بعد موتهم . . لذلك كانت جريمة من علم شيئا وكتمه عن غيره جريمة بشعة .

لذا يقول الرسول ﷺ : « **ما من رجل يحفظ علماً فكتمه إلا أتى يوم القيامة ملجما بلجام من نار** » (١) .

وقال رسول الله ﷺ: « **من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار** » (٢) .

يقول العلامة المناوى: من سئل عن علم علمه قطعا ، وهو علم يحتاج إليه سائل فى أمر دينه وقيل : ما يلزم عليه يعلمه ، كمريد الإسلام يقول: علمنى الإسلام ، والمفتى فى حلال أو حرام ، وقيل: هو علم الشهادتين فكتمه عن أهله، فماذا كان جزاؤه .

ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار . . أي أدخل فى فيه لجاماً من نار . مكافأة له على فعله ، حين ألجم نفسه بالسكوت فى محل الكلام .

فهذا الحديث خرج على مشاكلة العقوبة للذنب ، وذلك لأنه سبحانه أخذ الميثاق على الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه ، وفيه حث على أن يعلم العلم، لأن تعلم العلم إنما هو لنشره ، ودعوة الخلق إلى الحق والكاتم يزاول إبطال هذه

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه عن أبى هريرة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع رقم ٥٥٨٩ .
(٢) صحيح: رواه أحمد ، والنسائى والترمذى وأبو داود وابن ماجه والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع رقم ٦١٦٠ وتخريج المشكاة ٢٢٣ .

الحكمة ، وهو بعيد عن الحكم المتقن ، ولهذا كان جزاؤه أن يلجم تشبيها له بالحيوان الذى سخر ومنع من قصد ما يريده ، فإن العالم شأنه دعاء الناس إلى الحق وإرشادهم إلى الصراط المستقيم [١] .

قال رسول الله ﷺ : « **أيما رجل أتاه الله علما فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار** » [٢] .

وقال رسول الله ﷺ : « **من كتم علما عن أهله ألجم يوم القيامة لجاماً من نار**»[٣] قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[البقرة: ١٧٤] .

يقول العلامة ابن كثير رحمه الله فى هذه الآية: إنما يأكلون ما يأكلون فى مقابلة كتمان الحق نار تأجج فى بطونهم يوم القيامة ولا يكلمهم الله يوم القيامة ، وذلك لأنه غضبان عليهم ، لأنهم كتموا وقد علموا فاستحقوا الغضب .

قال البقاعى : لما كانوا بعدوا عن موطن الرحمة ببخلهم بما لا ينقصه الإنفاق أشار إليهم بأداة الإبعاد فقال: أولئك، وفى خطاب النبى ﷺ به إشعار بوقوع ذلك من طائفة من أمته حرصا على الدنيا.

ما يأكلون فى بطونهم إلا النار . وفى ذكره بصيغة الحصر نفى لتأويل المتأول ولما قدم الوعيد فى الثمن ، لكونه الحامل على الكتم أتبعه وعيد نفس الكتم فقال كلاما يدل على مرضى لكونهم لم يكلموا الناس بما كتب عليهم ولا يزكيهم أى يطهرهم من دنس الذنوب أو يثنى عليهم أو ينمى أعمالهم بما يحصل لهم من الميثاق فى يوم التلاق ، لما يزكى بذلك من شاء من عباده ، لأنهم كتموا عن العباد ما يزكيهم[٤].

ويصور الأستاذ محمد رشيد رضا فى المنار حال أولئك الذين كتموا دينهم

---

(١) فيض القدير للإمام المناوي ج٦ ص١٤٦ .

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع رقم ١٧١١ .

(٣) رواه ابن عدى فى الكامل عن ابن مسعود، وابن حبان ح ٣٩٣ .

(٤) تفسير ابن كثير ج١ ص٢٩٥ .

ورفعوا طينهم .

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا دينا يبقى ولا ما نرقع

يتكلم عن الذين كتموا العلم الإلهى، ابتغاء الدنيا من اليهود والنصارى فما حصلوها ، ثم يعرج على عمومية الآيات فيقول: إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا، أى الذين يخفون شيئا ممن أنزل الله فى كتابه ، فلا يبلغونه للناس مهما يكن موضوعه. أو يخون معناه عنهم بتأويله ، أو تحريفه ، أو وضع غيره فى موضوعه برأيهم واجتهادهم ، ويستبدلون بما يكتمونه ثمنا قليلا من متاع الدنيا الفانى كالرشوة والجعل على الفتاوى الباطلة ، أو قضاء الحاجات عند الله تعالى وغير ذلك من المنافع المؤقتة إذ اتخذوا الدين تجارة والثمن القليل منه ما قاله المفسر من استفادة الرؤساء من المرؤوسين ومنه عكسه [1] قال شيخنا: هذا النوع من البيع والشراء فى الدين عام فى الرؤساء الضالين من جميع الأمم ، ومنه ما كان رؤساء اليهود يلاحظونه زمن التنزيل ، وهو حفظ ما بيدهم الذين يتوهمونه أنه يفوتهم بترك ما هم عليه من التقاليد ، واتباع ما أنزل الله بدلا منها .

وماذا كان شأن اليهود فى زمن البعثة؟ ذل واضطهاد من جميع الأمم ولا سيما النصارى ، فقد كانوا يسومونهم سوء العذاب ، ومنعوهم من دخول مدينتهم المقدسة وأكرهوهم فى بعض البلاد على التنصر .

ماذا كان شأن النصارى فى زمن البعثة؟ فقر حاضر وذل غالب وحجر على العقول ، ومنع للحرية فى الرأى والعلم وتحكم فى الإرادة وسيطرة على خطرات القلوب وأهواء النفوس ، وكان هذا عاما فى كل قطر وكل مملكة ،وكان بين الطوائف بعضها مع بعض حروب تشب وغارات تشن ودماء تسفك وحقوق تنتهك ، وكانوا على هذا كله يتوهمون أن الإسلام سيخرجهم من سعادة إلى شقاء ، ومن نعمة إلى بلاء، هب أن بعضهم كان له شىء من المال ، وبقية من الجاه أليس هو من فخفخة الدنيا الزائلة ألم يكن منغصا بالخوف عليه ، والمنازعة فيه؟

هب أنه كان لبعض شعوبهم طائفة من القوة ألم تكن تشبه الزوبعة تعصف ولا

(١) نظم الدرر ج٢ ص٣٥٣ .

تلبث أن تزول؟ نعم إن ما كان يغر هؤلاء وهؤلاء لم يكن موضعا للغرور ، لأنه متاع حقير وثمن قليل ، وهو غير قائم على أساس ثابت ولذلك زال بظهور الإسلام وانتشاره وتقوضت تلك السلطة ، واندكت صروح تلك العظمة ، وأجلى اليهود من جزيرة العرب وزال ملك غيرهم من كل بلاد رفضوا فيها دعوة الإسلام ، وهذا شأن الباطل لا يثبت أمام الحق.

وقال السادة علماء التفسير: إن هذا الحكم يصدق على المسلمين كما يصدق على أهل الكتاب؛ لأن الغرض تقرير الحكم وهو عام كما يدل لفظه ، وكما يليق بعدل الله تعالى رب العالمين كل ثمن يؤخذ عوضا عن الحق قليل إن لم يكن قليلاً فى ذاته، فهو قليل فى جنب ما يفوت أخذه من سعادة الروح، ونعيم الآخرة باختيار الباطل على الحق، فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل .

وقد يعترض الناظر فى التاريخ ما قرره الأستاذ الإمام فى هذا المقام من ذهاب عز الذين قاوموا دعوة الإسلام وكتموا الحق من اليهود والنصارى بأن عيشة اليهود كانت بعد الإسلام خيرا منها قبله ، لأنهم كانوا [1] مضطهدين مقهورين بحكم النصارى الشديد وتعصبهم الفاحش ، فساوى الإسلام بينهم ، وبين النصارى والمسلمين وأعطاهم كمال الحرية فى دينهم ودنياهم فحسنت حالهم فى الشرق والغرب وربما يقول قائل : إن المسلمين لم يقووا على جميع نصارى أوربا ، فبقى للكثير من الممالك سلطانها وما تتمتع به ، وهناك بعض الممالك الوثنية ،وهم أعرق فى الباطل من النصارى؟ والجواب عن ذلك فإن يهود الحجاز هم الذين كانوا يؤذون النبى ﷺ ويكتمون ما عرفوا من نعمته ، ويظاهرون المشركين عليه ، فهم الذين قاوموا الحق بالباطل ، فلقوا جزاءهم الذى تم بجلائهم من جزيرة العرب أو الحجاز أما يهود الأندلس كانوا يساعدون الدعوة الإسلامية ودعاتها .

حتى من لم يؤمن منهم ليخلصوا من ظلم النصارى واستبدادهم فيهم ، فنالوا من حسن الجزاء بمقدار قربهم من الحق ولو آمنوا وقبلوا الحق كله وأيدوه لذاته ظاهرا وباطنا ، لأتوا أجرهم مرتين وجزاءهم ضعفين وكانوا أئمة وارثين وسادة عالين .

---

(١) تفسير المنار لفضيلة الشيخ محمد رشيد رضا ج٢ ص١٠٢ ـ ١٠٦ .

وأما الذين سلم لهم ملكهم ومتاعهم ، فلم يكن لهم ذلك بضعف حق الإسلام عن باطلهم ، فإن الذين حاولوا فتح ما وراء الأندلس من أوربا لم يكن غرضهم كلهم نشر دعوة الحق ، وإنما كان غرضهم عظمة الملك والغنيمة وليس من الحق أن يعتدى قوم على قوم ، لأجل سلب ما فى أيديهم ، فإن المعتدى مبطل والمدافع محق فلا يصح أن يعتدى قوم على قوم لأجل سلب ما فى أيديهم ، فإن المعتدى مبطل والمدافع محق فى الدفاع عن نفسه وبلاده ، وإن كان مبطلاً فى عمله واعتقاده ، فهو جدير بأن يكون له الظفر إذا أخذ أهبته وأعد له عدته . .

ثم يقول الشيخ محمد رشيد رضا ناقلاً عن شيخه محمد عبده فى وصف حال اليهود كانوا يشعرون بجاذبيتين متعاكستين : جاذب الحق الذى عرفوه وجاذب الباطل الذى ألفوه ذلك تحدث لهم هزة وتأثيراً وهذا يحدث لهم استكباراً ونفوراً وقد غلب عقولهم ما عرفوا وغلب قلوبهم ما ألفوا فثبتوا على ما حرفوا وانحرفوا وصاروا إلى حرب عوان بين العقل والوجدان يتصورون الخطر الأجل ، فيتنغص عليهم التلذذ بالعاجل ، ويتذوقون حلاوة ما هم فيه فيؤثرونه على ما سيصيرون إليه أليس هذا الشعور بخذل الحق ونصر الباطل ، واختيار ما تبقى على ما يبقى نارا تشب فى الضلوع؟ أليس ما يأكلونه من ثمن الحق ضريعا لا يسمن ولا يغنى من جوع؟ بلى فإن عذاب الباطن أشد من عذاب الظاهر [١] يقول صاحب الظلال رحمه الله: والتنديد بكتمان ما أنزل الله من الكتاب كان المقصود به أولا أهل الكتاب. ولكن مدلول النص العام ينطبق على أهل كل ملة يكتمون الحق الذى يعلمونه ، ويشترون به ثمنا قليلا ، إما هو النفع الخاص الذى يحرصون عليه بكتمانهم للحق ، والمصالح الخاصة التى يتحرونها بهذا الكتمان ويخشون عليها من البيان ، وإما هو الدنيا كلها ، وهى ثمن قليل حين تقاس إلى ما يخسرونه من رضا الله ومن ثواب الآخرة.

﴿ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ ﴾[البقرة : ١٧٤] وكأنما هذا الذى يأكلونه من ثمن الكتمان والبهتان نار فى بطونهم ، وكأنما يأكلون النار وإنها الحقيقة حين يصيرون إلى النار فى الآخرة ، فإذا هى لهم لباس ، وإذا هى لهم طعام .

---

(١) الجزاء من جنس العمل ج٢ ص٣٦٤، ٣٦٥ .

وجزاء ما كتموا من آيات الله أن يهملهم الله يوم القيامة ، ويدعهم فى مهانة وازدراء لا كلام ولا اهتمام ، ولا تطهير ولا غفران .

فما أصبرهم على النار . . فكأنما هى صفقة يدفعون فيها الهدى ، ويقبضون الضلالة ويؤدون المغفرة ، ويأخذون فيها العذاب ، فما أخسرها من صفقة وأغباها ويا لسوء ما ابتاعوا وما اختاروا وإنها الحقيقة ، فقد كان الهدى مبذولا لهم فتركوه وأخذوا الضلالة ، وكانت المغفرة متاحة لهم فتركوها واختاروا العذاب . . .

﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾[البقرة: ١٧٥] فيا لطول صبرهم على النار . التى اختاروها اختياراً ، وقصدوا إليها قصداً، فيا للتهكم الساخر من طول صبرهم على النار، وإنه لجزاء مكافئ لشناعة الجريمة ، جريمة كتمان الكتاب الذى أنزله الله ، ليعلن للناس ، وليحق فى واقع الأرض وليكون شريعة ومنهاجا فمن كتمه فقد عطله عن العمل ، وهو الحق الذى جاء للعمل . . .

ذلك بأن نزل الكتاب بالحق ، فمن فاء فهو على الهدى ،وهو فى وفاق مع الحق وفى وفاق مع المهتدين من الخلق وفى وفاق مع فطرة الكون وناموسه الأصيل . .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾[البقرة : ١٧٥] شقاق مع الحق وشقاق مع ناموس الفطرة وشقاق فيما بينهم وبين أنفسهم ، ولقد كانوا كذلك وما يزالون؛ وتلحق بهم كل أمة تختلف فى كتابها فلا تأخذ به جملة ، وتمزيقه تفاريق، وعد الله الذى يحقق على مدار الزمان ، واختلاف الأقوام ونحن نرى مصداقه واقعاً فى هذا العالم الذى نعيش فيه [١] .

---

(١) الظلال ج١ ص١٥٧، ١٥٨ .

الجرائم التى ارتكبها كاتم العلم

بعد هذه اللمحة السريعة عن كتمان العلم . وحديث القرآن الكريم عنه وبيان السنة النبوية الجزاء لمن منّ الله عليه بالعلم وكتمه نبين أهم الجرائم التى ارتكبها كاتم العلم :

أولا: أن كاتم العلم بخل بشىء منّ الله به عليه وبدل من يعطى الناس من فضل الله وعطائه العظيم ويكون عونا لهم على الشيطان، لأن يحجزهم عن ارتكاب المعاصى ، ويكون حجر عثرة فى وجه الشر، ولبنة فى صرح الخير . . بدل أن يكون كذلك . . فإذ به يبخل بشىء من الله به عليه .

ثانيا : أنه أصبح قدوة سيئة لغيره فقد يحتذى به بعض الآخرين فيصر الشح والبخل فى شىء يزيده الإنفاق؛ لذا روى عن الإمام على كرم الله وجهه أنه قال: العلم يحرسك، وأنت تحرس المال المال ينقص بالإنفاق والعلم يزيده الإنفاق .

ثالثا: أن كاتم العلم شارك فى قتل بعض النفوس بل إن لم أكن مبالغا إن قلت: قتل كثيرا من النفوس لماذا؟

لأن من يأتيه ويسأله ويبخل عنه بما من الله عليه من العلم فإنه بذلك يكون سببا من أسباب ضياع هذا السائل فيكون مثله مثل الطبيب الذى سئل عن دواء وهو يعرفه فأنكر معرفته به فمات هذا السائل ولم يقدم له ما يسعفه .

رابعا : لم يشارك فى نهضة ورقى أمته التى هى أمة اقرأ، هذه الأمة التى يوم أخذت بالعلم وأمدت يدها به أنارت الكون كله من مشارق الأرض ومغاربها، وأخذت بيد البشرية بعد أن كانت ضائعة تائهة .

تعلم فليس المرء يولد عالما ... وليس أخو علم لمن هو جاهل

وإن كبير القوم لا علم عنده ... صغير إذا التفت عليه المحافل

وحسبى بعد هذه الإلمامة السريعة أن أختم هذا الدرس المفيد أن أسوق إليك أخى الكريم هذا الخبر الذى يحكى أن بعض فطاحل العلماء فى العراق كانوا يحقدون على الإمام الشافعى ﷺ ويكيدون له؛ لأنه كان متفوقاً عليهم فى العلم والحكمة، وكان

متربعا على قلوب أكثر طلاب العلم والمعـرفة الذين لا يحرصون إلا على مجلسه ولا يقتنعون إلا برأيه وعلمه، ولهذا اتفق هؤلاء العلمـاء الحاقدون على الإمام الشافعى ، فيمـا بينهم على تحضير بعض الأسئلة المعـقدة وفى اسلوب الألغاز حتى يختـبروا بها ذكاء الشافـعى ومقدار تضلعه وإدراكه أمـام الخليفة العباسى الرشـيد الذى كان يحب الشافعى ويثنى عليه كثيرا . .

وبعد أن وضعوا الأسئلة أخبروا الخليـفة الذى حضر المناظرة واستمع إلى الأسئلة التى أجاب عليهـا الإمام الشافعى ﷺ بكل ذكاء وفصاحـة والتى كانت على النحو الآتى:

س١ : ما قـولك فى رجل ذبح شاة فى منزله ، ثم خرج لحـاجة وعاد ، فـقال لأهله: كلوا أنتم الشـاة فقد حـرمت عليّ فقـال أهله: ونحن حرمت علينـا كذلك؟ أجاب الشـافعى بقوله: إن هذا الرجـل كان مشـركا فذبح الشـاة على اسم الأنصاب وخرج من منزله لبعض المهمات . فهداه الله تعالى إلى الإسلام وأسلم فحرمت عليه الشاة، وعندما علم أهله بإسلامه أسلموا هم أيضا فحرمت عليهم الشاة كذلك .

س٢ : ما قولك فى رجل هرب له غلام (عبد مملوك) فقال : هو حر إن أكلت طعاما حتى أجده ، فكيف المخرج له عما قال؟

أجاب: يهب الغلام لبعض أولاده ، ثم يأكل ، ثم بعد ذلك يسترد ما وهب .

س٣ : شرب مسلمان عاقلان الخمر يحد أحدهما ولا يحد الآخر؟

أجاب قائلاً: أحدهما كان بالغا عاقلا ، والآخر كان صبيا.

س٤ : لقى امرأتان غلامين فقالتا: مرحبا بابنينا وزوجينا وابني زوجينا؟

أجاب: بقـوله: إن الغلامين كانا ابنى المرأتين فـتزوجت كل واحدة منهـما بابن صاحبتها ، فكان الغلامان ابنيهما وزوجيهما وابن زوجيهما [١].

س٥ : أخذ رجل قدح ماء يشـرب فشرب نصفه حلال وحرم عليـه بقية القدح؟ أجاب: أن الرجل شرب نصف القدح ورعف فى الماء البـاقى فى القدح فاختلط الدم

---

(١) من وصايا الرسول، طه العفيفى، المجلد الأول ص٥٣١ .

بالماء فصارا محرما عليه .

س٦ : زنا خمسة نفر بامرأة ، فوجب على أولهم القتل وثانيهم الرجم وثالثهم الحد ورابعهم نصف الحد وخامسهم لا شيء عليه .

فأجاب ﷺ بقوله: إن الأول استحل الزنا فصار مرتدا فوجب عليه القتل والثاني كان محصنا أى متزوجا ،والثالث كان غير محصن، والرابع كان عبدا، والخامس كان مجنونا.

س٧ : رجل صلى ولما سلم عن يمينه طلقت زوجته، ولما سلم عن يساره بطلت صلاته ، ولما نظر إلى السماء وجب عليه دفع ألف درهم؟

أجاب بقوله: لما سلم الرجل عن يمينه رأى شخصا تزوج هو أى المصلى امرأته فى غيبته فلما حضر طلقت زوجته منه، ولما نظر عن شماله رأى نجاسة فى ثوبه فبطلت صلاته، ولما نظر إلى السماء رأى الهلال وقد ظهر فى السماء أى الهلال وكان عليه دين ألف درهم يستحق سداده فى أول الشهر من ظهور الهلال.

س٨ : كان إمام يصلى مع أربعة نفر فى مسجد فدخل عليهم رجل وصلى عن يمين الإمام فلما سلم الإمام عن يمينه ورأى ذلك الرجل وجب على الإمام القتل وعلى المسلمين الأربع الجلد ووجب هدم المسجد من أساسه؟

فأجاب رحمه الله بقوله: إن الرجل القادم كانت له زوجة وسافر وتركها فى بيت أخيه فقتل هذا الإمام الأخ وادعى أن المرأة كانت زوجته وهى كانت زوجة المقتول فتزوج منها وشهد على ذلك الأربعة المصلون، وأن المسجد كان بيتا للمقتول فجعله الإمام مسجدا .

س٩: أعطى رجل امرأته كيسًا مملوءًا مختوما وطلب منها أن تفرغ ما فيه بشرط ألا تفتحه، أو تفتقه أو تكسر ختمه أو تحرقه وهى إن فعلت شيئا من ذلك فهى طالق؟

فأجاب أن الكيس كان مملوءًا بالسكر أو الملح ، وما على المرأة إلا أن تضعه فى الماء فيذوب ما فيه .

س١٠ : رأى رجل وامرأة غلامين فى الطريـق فقبلاهما ولما سـئلا فى ذلك قال الرجل أبى جدهما وأخى عمهما ، وزوجتى امرأة أبيهما وقالت المرأة : أمى جدتهما وأختى خالتهما؟

فأجاب بقوله: إن الرجل كان أبا للغلامين والمرأة أمهما.

س١١ : كان رجـلان فوق سطح منزل فسقط أحـدهما فمات ، فـحرمت على الآخر امرأته؟

أجاب بقوله: إن الرجل الذى سقط فمات كـان مزوجا ابنته من عبده الذى كان معه فوق السطح، فلما مات الرجل أصبحت البنت تملك ذلك العبد الذى هو زوجها فحرمت عليه .

إلى هذا ولم يستطع الرشيـد الذى كان حاضراً تلك الساجلة إخفـاء إعجابه من ذكاء الشافعي وسرعة خاطره وجودة فهمه وحسن إدراكه وقال: لله در عبد مناف فقد بينت فأحسنت ، وفسرت فأبلغت وعبرت فأفصحت .

فقـال الشافـعى: أطال الله عمـر أميـر المؤمنين ، إنى سائل هؤلاء العلـماء فى مسـألة، فإن أجـابوا عليهـا فالحمـد لله ، وإلا فأرجـو أمير المؤمنين أن يكـفوا عنى أذاهم.

فقال الرشيد: لك ذلك وسلهم ما تريد يا شافعى فقال لهم الشافعى رحمه الله:

مـات رجل عن ٦٠٠ درهم فلم تنل أخـته من هذه التـركة إلا درهم واحـد ، فكيف كان الظرف فى توزيع التركة؟

فنظر العلمـاء بعـضهم إلى بعـض طويلا ، ولـم يستطـع أحدهم الإجـابة على السؤال وأخذ العرق يهطل من جباههم، ولما طال بهم السكوت قال الخليفة: قل لهم الجواب يا شـافعى، فقال الشـافعى رحمـه الله رحمة واسعـة: مات هذا الرجل عن ابنتين وأم وزوجة واثنى عـشر أخا وأخت واحدة، فأخـذت البنتان الثلثين وهو ٤٠٠ درهم وأخذت الأم السدس وهو ١٠٠ درهم،وأخذت الـزوجة الثمن وهو ٧٥ درهما وأخذا الاثنا عشر أخا ٢٤ درهما فبقى درهم واحد أخذته الأخت فتبسم الرشيد وأمر له بألفى دينار فتسلمها الشافعي ووزعها على خدم القصر وحاشيته .

وهكذا أخا الإسلام فإن العلم وتحصيله واجب على كل مسلم ومسلمة ، ولكن كتمانه حرام، وعدم السعى به حرام.

فنبى الله يحيى عليه السلام عندما أمر من قبل الله عز وجل أن يبلغ بنى إسرائيل هذه الكلمات الخمس التى فيها صلاح الدنيا والآخرة، فخشى عليه السلام من كتمان العلم وعدم الإفصاح عنه فيؤخذ بهذا الذنب فما علينا معاشر المسلمين إلاَ أن نعمل على تحصيل العلم والعمل على انتشاره.

فيا أخى الحبيب لا تكن من الذين قال الله فيهم: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾[البقرة : ١٧٤].

فيا أيها الحبيب حصل العلم وانشره فإنك بذلك تكون قد ساهمت فى بناء أمتك وعملت على تقويتها والإحسان إلى إخوانك، ولا تكن مثل رجل أنعم الله عليه بمال وفير وخير كثير، فوضع المال فى خزينة المال وأغلق عليه بابه فلا هو أنفقه فى سبيل الله فينتفع به العباد ولا أنفقه على نفسه فباء بحسرته فى الدنيا والحساب فى الآخرة.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين .

خاتمة

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى .

كما بدأنا بالحمد نختم بالحمد فلله الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون .

وبعد

فهنا سكت القلم عن الكتابة وكف اللسان عن البيان، فكان خاتمة الكتاب والحمد لله على ما أنعم به من آلائه العظيمة وأفضاله الجسيمة إنه هو العزيز الوهاب.

وإن كان بقى شىء نقوله فهو الاعتراف بالنقص الذى يعترى جملة البشر، فالكمال لله سبحانه وحده ، فمن وجد فى الكتاب نقصا، وتقصيرا فليعلم أنه شيء لابد منه ، ومن وجد فيه ما ينفعه فلا ينسانا من دعائه، لعل هذا يجير تقصيرنا، إنه سميع مجيب الدعاء

قائمة بأهم المراجع

أولا: القرآن الكريم .

ثانيا: كتب تفسير .

١ـ تفسير القرآن العظيم — إسماعيل بن كثير

٢ـ فى ظلال القرآن — الشهيد سيد قطب

٣ـ أحكام القرآن — للإمام أبى عبد الله القرطبى

٤ـ مختصر تفسير ابن كثير

٥ـ مفاتيح الغيب — للإمام / الرازى

٦ـ تفسير الإمام الطبرى — الإمام الطبرى

٧ـ أضواء البيان — للإمام / الشنقيطى

٨ـ تفسير المنار — الشيخ / محمد رشيد رضا

٩ـ نظم الدر

ثالثا: كتب حديث

١ـ صحيح البخارى

٢ـ صحيح الإمام مسلم

٣ـ سنن أبي داود

٤ـ مستدرك الحاكم

٥ـ مسند الإمام أحمد

٦ـ سنن الترمذى

٧ـ سنن ابن ماجه

٨ـ سنن النسائى

٩ ـ سنن البيهقى

١٠ـ صحيح الجامع للألبانى

رابعا: كتب أخرى:

١ـ خلفاء الرسول ﷺ خالد محمد خالد

٢ـ من وصايا القرآن الشيخ / محمد عبدالعاطى بحيرى

٣ـ احفظ الله يحفظك د/ عائض القرنى

٤ـ نور الاقتباس ابن رجب الحنبلى

٥ـ الجزاء من جنس العمل د/ سيد حسين الكفانى

٦ـ شفاء العليل ابن القيم الجوزى

٧ـ محاضرة د/ تاج الدين نوفل

٨ـ مساوئ الأخلاق للخرائطى

٩ـ الأنابيش الأستاذ / عبدالرحمن الضبع

١٠ ـ زيادات الزهد لابن المبارك

١١ـ الشفا فى أحوال المصطفى القاضى عياض

١٢ـ من وصايا الرسول ﷺ الشيخ / طه العفيفى

١٣ـ فيض القدير للإمام / المناوى

١٤ـ قصص واقعية عن بعض الموتى لمجموعة من العلماء

١٥ـ حياة الصحابة يوسف الكندهلوى

١٦ ـ قصص الأنبياء ابن كثير

١٧ـ مسأله صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء الشيخ/ أحمد ديدات

١٨ـ حقوق يجب أن تعرف الشيخ / محمد حسان

١٩ـ مدارج السالكين ابن القيم

٢٠ـ الحقوق الاسلامية طه العفيفى

٢١ ـ تربية الأبناء فى الإسلام د/ ناصح علوان